

مطبوعات
کتابی

بصرها: حامی مراد

حياة امرأة

الترجمة الكاملة لأقوى قصة طويلة كتبها
جى دى موباسان

٨ قروش

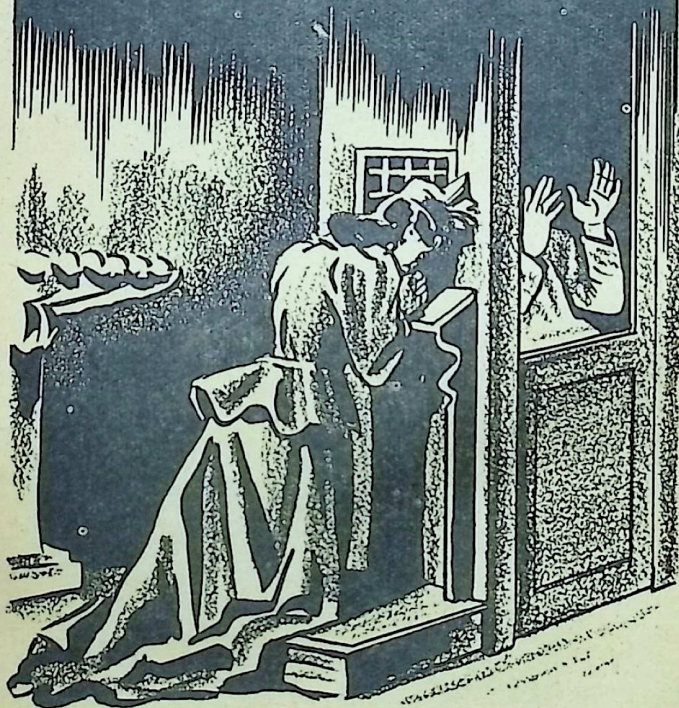


انها قصة كل زوج خائن، وامرأة مخدوعة !

الجزء الثاني

جی دی موباسان

حياة امرأة



UNE VIE

كتاب

ملاحق خاصة تصدر عن « كتابي » في المناسبات ، متضمنة ترجمة كتاب
طويل كامل من الكتب العالمية الممتازة ، القصصية وغير القصصية ، في كل
موضوع ، لأعظم المؤلفين

يصدرها : حلمي مراد

سمايل برهان



مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السادس

وراجعه : حلمي مراد

ترجمه : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٦٥٦٠٨



.. وروح بها الأسي والاليم ، فركعت الى جوار السرير ، تبكى في مرارة ..

ملخص الجزء الاول

خرجت « جان » من الدير لتواجه الحياة ، وهي تواقه الى الاستمتاع بالسعادة التي طالما حلمت بها . . . خرجت مغمضة العينين ، جاهلة بامور الدنيا جهلا مطبقا ، نتيجة لرغبة والدها البارون « سيمون دى فود » ، الذى ادخلها الدير ، ولما تبلغ الثانية عشرة ، ليضمن ان تعود اليه فى السابعة عشرة ، كاملة الطهر والعفة ، فيشرع بنفسه فى تنبيه روحها القافية وتنويرها ! وكان من الطبيعى ان تبدا « جان » ، الفتاة اليانة الناضجة ، فى التفكير فى . . . الحب . ولكن كان ثمة حاجز بينها وبين لقائه . . . هذا الحاجز هو فتى احلامها الذى لم يكن قد ظهر بعد . ومع ذلك ، فكثيرا ما كانت تتخيل صورته ، وشكله ، ولون عينيه ، وطريقة حديثه ، وقد تملكها انفعالات نشوة محمومة !

وسرعان ما قابلته . كان الاثنان يلتزمان الى طبقة النبلاء ، ويقتطان فى منطقة واحدة ، فلم يكن اللقاء غريبا . وكان الفتى صورة لما تخيلته ، اذ كان يحظى بوجه من تلك الوجوه التى تثير الوجد فى قلوب سيدات المجتمع المتكررات ، وتحمل البسيطات من فتيات الطريق على ان يلتفتن اليه ! وتآلف الشابان سريعا ، واخذ قلباهما يزدادان قربى ، ثم ما لبث سلطان الحب ان تغلب على القلبين اليافعين . . . واذا بجان تجد نفسها زوجة للشاب الوسيم ، الفيكونت « جوليان دولامار » ، واذا بها تشعر بانها توشك ان تلج العالم المرموق !

وجاء يوم الزفاف ، حاملا فى طياته الحيرة والدهول لخريجة الدير . واذا اوت الى مخدعها فى تلك الليلة ، اخذت تستعيد كلمات ابيها لها ، اثناء حفل الزفاف : « . . . لا تنسى يا حبيبتي انك ملك مطلق لزوجك ، وهو الخليق وحده بان يرفع لك الستار المسدلة على سر الحياة الجميل ! »

. . . واندست « جان » فى فراشها ، وبقيت ترتقب ذلك الشئ الغامض الذى سيزيح الستار عن سر الحب الاكبر !

ولم يلبث زوجها ان وافاها . واذا احتواها بين ذراعيه ، وراح يقبل فى نهم وشوق عنقها ، ويكاد يخنقها بعناقه ، احست بقلق رهيب يعصر نفسها ، وودت ان تفر ، لتحبس نفسها فى مكان بعيد عن هذا الرجل . . . واصبح الصباح ، واخذت جان تسترجع ذكريات الليلة الاولى : اذن ، فهذا ما قصده ابوها بقوله : « لا تنسى يا حبيبتي انك ملك مطلق لزوجك »

ورحل العروسان الى كورسيكا لقضاء شهر العسل . وكان « جوليان »

لا يفتا يلاحقها برغبته ، غير عابىء بما اذا كان الوقت مناسباً ام غير مناسب ، حتى بدا الاشمئزاز من مسلكه يتسلل الى نفسها !

وحين عاد الزوجان الى الضيعة التى خصصها ابوها لاقامتهما ، كانت علاقاتها بجوليان قد تغيرت تماماً ، واختفى كل اثر للحب ! وكان قد تولى الاشراف على الضيعة والبيت ، فاختصر النفقات واخذ يقتر عليها !

وفي احد الايام ، فوجئت جان بخادمتها « روزالى » تضع مولوداً امامها ، ولم تكن قد تزوجت بعد . واراد زوجها ان يطرد الفتاة ، الا ان « جان » - وقد ايقنت ان الفتاة كانت ضحية غرر بها - اصرت على بقائها ، على ان يودع الطفل ملجأ ، ريثما تجد للضحية المسكينة زوجاً !

وحاولت « جان » ان تعرف من « روزالى » اسم والد الطفل ، ولكن الفتاة ابت فى اصرار غريب ، وهى تذرف دموعاً سخينة

وذات ليلة قارسة - وكان « جوليان » قد اتخذ لنفسه مخدعاً آخر - شعرت « جان » بشيء رهيب يجثم على انفاسها ويكاد يزهرق روحها ، حتى خيل اليها انها على وشك الاحتضار . واسرعت الى الجرس ففضطت عليه تدعو « روزالى » . ولكنها لم تجب . واسرعت تبحث عنها فى غرفتها ، فوجدت فراشها خالياً ، ومن ثم قصدت غرفة زوجها لتوقظه . وحين ولجت الغرفة ، كادت المفاجأة ان تقضى عليها . فقد رأت « روزالى » راكدة الى جوار « جوليان » . وارسلت صرخة هائلة ايقظت العاشقين مدعورين ، ثم اندفعت هاربة من القصر ، حافية القدمين ، لا يستتر جسدها سوى ثوب خفيف . وعلى حافة بعض التلال الجيرية ، توقفت واخذت تفكر فى الالتجاء بنفسها ، بعد اذ ادركت ان حياتها قد تحطمت . وهمت بالوثوب ، لولا ان تمثلت لعينيها صورة ابويها داعمين ، وقد افترسهما الحزن والقنوط ، فارتمت على الجليد مسلوبة القوى ، حتى اذا جاء زوجها والخدم ، ورفعوها عن حافة الهاوية ، لم تقاوم . ثم ما لبثت ان دخلت فى غيبوبة طويلة !

وعندما استيقظت ذات صباح ، وقعت عيناها على ابويها ، فطفت تروى لهما كل شيء ، بعد اذ اشرقت فى ذهنها الحقيقة : روت - فى تؤدة وجلاء ، ونبرات واضحة - ما كان من طباع « جوليان » ، وبخله ، واخيراً خيانتة !

والآن . . . تستطيع أن تتابع القراءة :

* * *

♦ **ورای البارون** أنها كانت تتحدث في وعى واتزان ، لكنه لم يدر ماينبغي أن يقول أو يفعل ، فاحتوى يديها في راحتيه ، وقال في حنان : « اسمعي يا حبيبتي .. كوني عاقلة ولا تتهورى . حاولي أن تتحملي الامر الى أن نرى ماذا يمكن أن نفعل . عديني ! »
 - أعدك يا أبت .. ولكنني لن أمكث هنا اذا ما تحسنت صحتي ..

ثم أردفت متسائلة في صوت خفيض : « أين روزالي ؟ »
 فأجاب البارون : « لن تريها بعد الآن ! »
 فعادت «جان» تتساءل في اصرار : «أين هي ؟ .. خبراني !»
 .. فذكر البارون انها لم تبرح الدار ، وان كانت سترحل لا محالة ..

وعندما غادر البارون وزوجته الغرفة ، لم يعرف غضب الاول حدا ، فقد آلمه أعماق الألم ما عوملت به ابنته ، فسعى فورا الى « جوليان » ، وقال له في اقتضاب : « لقد جئت ياسيدي أسألك ايضا **حاجا عن مسلكك ازاء ابنتي** .. لقد كنت غير وفي لها .. وأسوأ من هذا انك خنتها مع واحدة من خدمها ! »
 وأجفل « جوليان » مأخوذا ، ثم أنكر الاتهام ، وأقسم بكل مقدس انه كان بريئا ، وتساءل عما لديهم من برهان ..
 أو لم تكن « جان » مختلة الذهن ؟ .. أو لم تكن مصابة بحمي مخية ؟ .. أو لم تفر في نوبة جنون وسط الجليد ، لا يسترها سوى قميص النوم ؟ .. لقد كان هذا في نفس الليلة التي زعمت فيها انها رأت « روزالي » في غرفته ! .. وكان الشاب يتكلم في غضب وبصوت مرتفع ، مهددا بأنه سيرفع الامر للقضاء ! فارتبك البارون وحاول استرضاءه ، فبسط له يده لكن «جوليان» أبى أن يصافحه !

ولم تغضب « جان » حين بلغها ماقاله « جوليان » ، بل قالت في هدوء : « انه يكذب يا أبت العزيز .. ولكننا سنثبت ذنبه يوما .. »

♦ وظلت يومين هادئة . وفى صباح اليوم الثالث طلبت أن ترى « روزالى » .. لكن البارون رفض ، زاعما أنها رحلت! على أن « جان » أصرت على أن يلحقوا بها ، واحتدم انفعالها حتى بدأت تبكى وتصرخ : « أريد أن أرى روزالى .. يجب أن أراها ! » .. ووصل الطبيب فى تلك اللحظة ، فأفضى اليه البارون بكل شيء ، طالبا مشورته . فتناول الطبيب يد « جان » بين راحتيه وقال فى صوت خفيض : « خفى عنك ياسيديتى ، فإن أى انفعال لن يفود بغير الضرر الجسيم .. ان حياتك ، وحياة الجنين الذى فى أحشائك ، مهددتان »

وبهتت « جان » ، وتذكرت فجأة انها أحست بشيء يتحرك فى أحشائها ، فاستلقت فى سكونة وهدوء ، غير حافلة بما كان يدور حولها .. واستغرقت فى التفكير ، فلم تنم ليلتها .. لم يشغل بالها سوى أن ثمة طفلا فى طريقه الى الدنيا .. طفلها .. ابن جوليان .. وأخذت ترتجف مشفقة حين خطر لها انه قد يشبه جوليان !

ودعت أباهما ذات صباح ، وقالت له : « يجب أن أعرف كل شيء يا أبى العزيز .. كل شيء بخلافه .. أتسمعى ؟ .. لا ، لا تعارضنى ، سيما الآن ، فإن معارضتك لن تجدى ، ولن تنتج سوى الخطر .. اذهب فادع القس ، فإن روزالى ستقول الحق اذا ما كان هنا .. أحضره ، وتعال وأمى معه .. وكن حريصا حتى لا يرتاب جوليان ، والا أفسد كل شيء ! » وان هى الا ساعة ، حتى جىء بالقس الى غرفتها ، فجلس لاهث الانفاس ، يجفف العرق عن جبينه بمنديله الملون الكبير .. وما ان هدأت أنفاسه ، حتى شرع فى الدعاية ، قائلا

للبارونة : « أرى يابارونة انك لم تفقدى شيئا من سمنتك ،
وما أحسب الا أن كلا منا يناسب الآخر ! » ، ثم التفت الى
« جان » قائلا : « ما هذا الذى سمعته أيتها الشابة .. أحقا
لن نلبث أن نقيم حفل تعميد عما قريب ؟ .. آه ! آه ! ..
ولكننا لن نعد مركبا فى هذه المرة » .. ثم أردف فى جد :
« وانما سنعمد مدافعا عن الوطن » . وشرد بذهنه لحظة ، ثم
قال : « .. مالم يأت الجنين زوجة وأما صالحة مثلك ياسيدتى »
.. وانحنى للبارونة

وفتح الباب ، وبدأت « روزالى » والبارون يدفعها .. وكانت
تأبى أن تدخل ، وتكافح بجهد المستميتة ، فلم يلبث البارون
أن فقد صبره ، ودفعها دفعة قوية أرسلتها الى وسط الغرفة ،



فوقفت لحظة جامدة ، وقد غطت وجهها براحتيها . . ثم انخرطت في البكاء بحرقة ، وكان قلبها يتفطر . . واعتدلت « جان » في فراشها وقد شحب وجهها - اذ رأت « روزالى » - حتى حاكى وجوه الموتى . . وأخذ قلبها يخفق بسرعة حتى أضحت تتنفس فى عناء ، وبدا كأن الانفعال يوشك أن يخنقها . . وأخيرا تكلمت فى جهد ، قائلة للفتاة : « لا حاجة بى الى أن أسألك . . فان نظرة الاستحياء من الاثم، التى تعلو وجهك ، تغنى عن السؤال . . ولكن لا بد من أن أعرف كل شيء . . كل القصة ! لقد سألت الأيب أن يكون حاضرا ، حتى تقولي الحقيقة . . حتى يكون كلامك اعترافا . . أتفهمين ؟ »

ووقفت « روزالى » بلا حراك ، وهى تشد قبضتيها . . وكان البارون لا يكاد يملك روعه من الغضب ، فأمسك بذراعها ، ودفعها حتى جثت على ركبتها ، وهو يقول : « هلا تكلمت ؟ . . أجيبى ! »

فركعت « روزالى » الى جانب الفراش مخفية وجهها بين راحتيها ، واذا ذاك خاطبها القس قائلا : « هيا ياروزالى ، افعلى ماتؤمرين به ، وأجيبى . . اننا لن نصيبك بسوء ، ولسنا نريد أكثر من أن نعرف الوقائع الحقيقية »

ومالت « جان » على حافة الفراش وقالت : « ألم يكن حقا اننى رأيتك مع جوليان حين ذهبت الى مخدعه فى تلك الليلة ؟ » فأجابت « روزالى » فى أنين ، وهى لاتزال تخفى وجهها : « بلى ياسيدتى »

وانهمرت الدموع من عيني البارونة ، واختلطت شهقاتها بشهقات « روزالى » . . بينما عادت « جان » تسأل وهى تتفرس فى الفتاة : « منذ متى وهذا يحدث ؟ » - منذ . . منذ جاء الى هنا !

ولم تفقه « جان » جوابها ، فهتفت : « منذ جاء الى هنا . .
 أي . . منذ الربيع الماضي ؟ »

— أجل ياسيدتي . .

— منذ أول يوم جاء فيه الى هنا ؟

— أجل ياسيدتي . .

وأمرتها « جان » بالاسئلة وهي تتكلم بسرعة : « نبتني
 كيف حدث هذا . . كيف سألك أن تكوني له ؟ وماذا قال
 لك ؟ . . وكيف انصعت له ؟ . . وكيف رضيت بأن تسلميه
 نفسك ؟ »

ورفعت « روزالي » وجهها عن راحتها أخيرا ، وقد تملكها
 فجأة رغبة محمومة في أن تتكلم . . وأن تفضي بكل شيء ! . .
 ومضت تقول : « لست أدري . . كان ذلك يوم جاء الى هنا
 ليتناول العشاء للمرة الاولى . . فلقد اختبأ فوق سطح البيت ،
 ثم سعى الى غرفتي بعد أن أوى كل شخص الى مخدعه . . ولم
 أجرؤ على الصراخ ، خوف الفضيحة ، ومن ثم مكث في غرفتي
 طيلة تلك الليلة . . ولم أكن أدري ماكنت أفعل . . تركته يفعل
 بي ما شاء ، لأنني أحبيته ! »

فصاحت « جان » في ألم مبرح « اذن ، فطفلك . . ابنه ؟ »

فأجابت « روزالي » منتحبة : « أجل ياسيدتي »

ولم ينبس أحد ببنت شفة ، أو يعكر الصمت سوى نقيب
 روزالي والبارونة . وطغى الأسى على « جان » ، ففاض الدمع
 من عينيها وانحدر في صمت على وجنتيها . . ان ابن خادمتها
 ينتمي الى نفس الاب الذي ينتمي اليه جنيها ! . . وكان غضبها
 قد انقثا ، فلم تعد تشعر بغير قنوط كئيب ، لا نهاية له ،
 ولا سبيل الى التخفف منه !

وعادت « جان » تسأل في صوت مختنق : « متى أستأنف

علاقته معك ، بعد عودتنا من . . من رحلتنا ؟ »

فأجابت « روزالي » : « منذ الليلة الاولى . . »

واخترمت الكلمات قلب « جان » كأنها طعنات خنجر • اذن ، فقد تركها « جوليان » فى الليلة الاولى بعد عودتهما الى قصر « الحور » ، كى يذهب الى خادماتها ! ؟ واذن ، فهذا سر بروده نجوها ! • • واكتفت بما عرفت ، فلم تعد تبقي مزيدا ، بل صرخت : « أخرجى ! • • اغربى عنى ! »

ولم تتحرك « روزالى » • • كان الخوف قد شل حراك الفتاة المسكينة ، فصاحت « جان » بأبيها : « دعها تخرج • • اخرجها ! » • • وقدر القس - الذى لم يفه بكلمة طيلة هذه الاثناء - ان الوقت أصبح مناسباً لكى يلقي احدى مواعظه ، فقال موجهها كلامه الى « روزالى » : « لقد ارتكبت اثماً فظيعاً • • وكم أخشى أن لا يغفر لك الله • فكرى فى هذا ، فان جهنم مصيرك اذا لم تثوبى وتستقيمى ! • • ولمصلحة طفلك ينبغى ألا تفعل بعد الآن ماتلامين عليه • • ولا شك فى أن البارونة ستدبر لك أمرك ، وستجد لك زوجاً • • »

وكان القس على استعداد لان يمضى فى عظته الى مالانهاية ، لولا أن البارون كان قد أمسك بمنكبى روزالى ، وألقى بها خارج الغرفة كحزمة من أسمال بالية • • حتى اذا عاد ، بدا فى شحوب الموتى ، أشد شحوباً من « جان » نفسها ! وعاد القس يقول : « كلهن سواء فى هذا الاقليم ، لا تتزوج الواحدة منهن قط الا بعد أن تنجب طفلاً ! • • اننى أعرف أن هذا فظيع ، ولكن ما الذى نملك أن نفعله ؟ • • ان الطبيعة البشرية ضعيفة ، ومن واجبنا أن نتسامح • • ويبدو أن الخطيئة بمثابة عادة » • • وابتسم ، ثم عبس وهو يستطرد قائلاً : « عادة ، حتى بين الاطفال ! • • أو لم أبأغت اثنين منهم فى المقبرة فى العام الماضى ؟ • • افتعرفون ماذا كانت اجابة أهلها حين أخبرتهم ؟ • • قالوا : « ليس هذا ذنبنا يا أبت ، فلسنا نعلمهم أمورا كهذه » • • رأيتم ؟ • • فخادمتكم اذن لم تفعل سوى مايفعله بقية القوم »

وقال البارون وهو يرتجف حنقا : « اننى لا ألوم الفتاة ..
انما ألومه هو .. الوغد ، الجبان ! ولسوف أقفل ابنتى عنه »
.. وراح يذرع الغرفة بخطى واسعة ، وهو يزداد غضبا فى
كل دقيقة . ثم استطرد : « انه وغد ، خميس ، شقى ، خدع
ابنتى ، ولسوف أجاهره بهذا .. لسوف .. أقتله !

فتنشيق القس بعض السعوط فى تؤدة ، وهو يتدبر خير
وسائل التوفيق . ثم قال : « مهلا .. انه - « بينى وبينك »
- لم يفعل سوى مايفعله كل الرجال . فهل يزيد الاوفياء ،
بين الأزواج الذين تعرفهم ، عن عدد أصابع اليد ؟ .. انت
مثلا .. ؟ » ، وأومضت عينا القس فى خبث وهو يستطرد :
« انت مثلا .. لقد فعلت عين الشئ ولا بد » .. فتوقف
البارون عن السير فى الغرفة ، وحملق فى القس ، الذى
مضى يقول : « أجل ، لقد فعلت ما يفعله بقية الرجال ..
اذ أوكد لك انهم جميعا يقتربون الذنب ذاته .. ومع ذلك ،
فان حبك لزوجتك لم يقل أو يضعف .. أليس كذلك ؟ »
وسمر البارون فى مكانه ، وقد بدا عليه الاستياء والتردد
.. انه كان يرتكب فعلا عين الذنب ، كلما كانت الفرصة
تسمح له ، لاسيما حين كانت الخادما يمتزرن بالجمال . أفتراه
كان وغدا اذن ؟ .. لم يقسو فى الحكم على « جوليان » بهذا
الشكل : فى حين انه لم يفكر قط فى الحكم على مسلكه الشخصى
بنفس القسموة ؟

وابتسمت البارونة فى لطف - وهى لاتزال دامعة العين -
اذ تذكرت « فلتات » زوجها .. وكانت فطرتها عاطفية ،
سهلة التأثر ، سريعة الصفح .. كما كانت ترى فى المغامرات
العاطفية جزءا من وجود كل انسان !

واضطجعت « جان » محدقة فى الفضاء أمامها ، تفكر فى
اعتراف « روزالى » .. وعادت كلمات التعسة ، تفعم نفسها
بالحزن الموجه : « تركته يفعل بى ماشاء ، لئننى أحببته ! » ..

وهي الأخرى أحبته ، ولهذا السبب وحده منحته نفسها ، وربطت حياتها بحياته .. لقد وقعت في شباكه ، فكان جزاؤها الشقاء ، والاسى ، والقنوط ! .. لماذا ؟ .. لأنها ، مثل روزالى ، « أحبته » !

وفتح الباب فى عنف ، ودخل « جوليان » بادهى الهياج . كان قد قابل « روزالى » على السلم وهى تبكى ، فأقبل وقد حدس ان ثمة أمورا تجري ، وخشى أن تكون قد اعترفت ! .. واذ رأى القس ، وقف جامدا ، وتساءل فى صوت غير مترن ، حاول أن يجعله يبدو هادئا : « ماذا جرى ؟ »

ولم ينبس البارون - الذى كان منذ دقيقة محتدم الغضب - ببنت شفة ، فقد خطر له مذكره القس عن مسلكه .. وارتفع نشيج البارونة عن ذى قبل .. أما « جان » فاستوت جالسة فى السرير تحديق فى « جوليان » الذى جعلها تتعذب بهذه القسوة .. ثم قالت متلعثمة :

- الذى جرى هو اننا لم نعد فى غياهب الجهل .. اننا نعرف كل شئ - كل شئ ، هل فهمت ؟ - نذالك .. وتصرفك الخسيس منذ .. منذ اليوم الذى ولجت فيه هذه الدار .. كل هذا تكشف لنا .. ان ابن روزالى ابنك ، مثل .. مثل ابنى ! .. سيكونان اخوين !

وأعجزها ان تملك زمام أعصابها ازاء هذه الفكرة ، فانطرحت على السرير تبكى فى حرقة ..

وبهت جوليان .. لم يدرك ماذا ينبغى أن يفعل أو يقول . ومرة أخرى ، خف القس لانقاذ الموقف . فاقترب من الفراش ، ووضع يده على جبهة جان قائلا :

- كفى ياسيدتى العزيزة .. تعقلى .. لاتدعى الاشياء تملك عليك قلبك بهذه الدرجة .. وأدخلت لمسة يده على نفسها سكينه .. كانت يد اعتادت

أن تواسي وأن تبريء الجراح ، وقد أوتيت قدرة خفية على بث
الطمأنينة .. واستأنف القس حديثه قائلا :

— يجب أن نفقر ياسيدتي .. صحيح انك في محنة شديدة،
ولكن الله أرسل لك بواسع رحمته سعادة عظيمة يعوضك بها
عن حزنك .. سيكون طفلك مبعث سلوى لك ، واني باسمه
أضرع اليك أن تصفحي عن زوجك ! .. ان هذا الطفل سيكون
رباطا بينكما .. سيكون ضمانا لاخلص زوجك في المستقبل
.. أفقتوين على العيش منفصلة عن والد طفلك الى الابد ؟
ولم تجب «جان» ، فان الجرح والانهاك اللذين أصابا نفسها
وجسمها لم يدعا لها قوة ما ، سواء للغضب أو للرضى والصفح
.. وقالت البارونة ، التي كانت تعجز دائما عن المضي في
الحقد والحلق : « ألا اصفحي أيتها العزيزة جان ! »

وأمسك القس بيد « جوليان » فوضعها فوق يد زوجته ،
في رفق ، وكأنه يربط بينهما ، ثم قال مستأنفا لهجته
الطيبة : « صدقاني ان هذا خير وأبقى »

ولم تمض دقيقة على اتحاد يديهما ، حتى انفلتتا منفصلتين .
ولم يجسر « جوليان » على أن يقبل « جان » ، ومن ثم قبل
جبهة البارونة ، وتأبط ذراع البارون مقترحا أن ينصرفا من
الغرفة ليدخنا . وابتهج البارون اذ سويت الامور بهذه الطريقة
المرضية ، فنسى كل ما كان يخالجه من غضب نحو « جوليان » !
واستغرقت « جان » في النوم بعد انصرافهما ، فراح
القس والبارونة يتحدثان همسا — القس يرسم خطته ،
والبارونة توافق على كل شيء — قال القس : « اذن ، فقد أصبح
من المفهوم انك ستمنحين « روزالي » مزرعة (بارفين) ،
وسأتكفل أنا بأن أجد لها زوجا .. آه ! لن يكون من العسير
العثور لها على زوج .. فما دامت هناك العشرون ألف فرنك ،
فسوف تجد خاطبين كثيرين .. ومن ثم فالمسألة تنحصر في
اختيار الصالح منهم »

وابتسمت البارونة ، وقد أحست بالارتياح ، رغم أن آثار
الدموع كانت لاتزال على وجهها . . ثم قالت : « ولكن ، لاتنسى
أن مزرعة (بارفين) تساوى عشرين ألفا من الفرنكات على
الأقل ، وانها يجب أن تكتب باسم الطفل ، على أن ينتفع بها
الزوجان ابان حياتهما »

وتأهب القس للانصراف ، فصافح البارونة قائلا : « لا
تزعجى نفسك يا بارونة . . اننى أدرك حقيقة الموقف ، وسيكون
لكل خطوة حسابها »

وصادف ، وهو خارج ، الخالة « ليزون » مقبلة لترى « جان »
. . وكالمعتاد ، لم يداخل الخالة الارتياح فى شيء ، ولم تعرف
شيئا ، أو ينبئها أحد بشيء !





الفصل الثامن

♦ استبدلت الأسرة بروزالي فلاحه ضخمة الجسم ، قوية ، أخذت تعين البارونة حين كانت تقوم بنزهتها اليومية في الطريق التي كانت حبيبة الى نفسها ، والتي كانت آثار قدميها الثقيلتين ترسم عليها يوما بعد يوم .

ومضت « جان » تجتاز مرحلة الحمل الاليمة ، وهي تترقب الوضع في غير احتفال ، ولكن في خوف دائم من أن يحيق بها نحس جديد .. فقد ظلت مثبطة الروح من جراء أحزانها الاخيرة .. ومالبث الربيع أن أقبل ، وكانت لا تزال ثمة بقية من قر الشتاء ، بيد ان زهور الحقل بدأت تنبت في الحفر والاخاديد ، تحت أوراق الشجر الذابلة ..

وكانت جان دائمة التوكل .. وقد اعتادت أن تخرج لتتمشى ، متكئة على ذراع أبيها ، بينما كانت الخالة « ليزون » تسير الى جانبها الآخر ، ممسكة بيدها ، وهى فى لهفة وانفعال ازاء « الحدث » المرتقب .. ازاء هذا السر الغامض المجهول الذى لن يقدر لها أن تعرفه ! .. وكانوا يمشون على هذا الوضع ساعات ، لا يكادون يتفوهون بكلمة ، بينما كان « جوليان » - الذى أولع فجأة بركوب الخيل فى الفترة الاخيرة - يقضى وقته مطوفا بأرجاء الريف . ولقد قام البارون وزوجته و « جوليان » بزيارة آل « دى فور فيى » .. ومن الغريب ان « جوليان » بدا على علاقة وثيقة بالزوجين .. كذلك تبودلت زيارة رسمية أخرى مع الزوجين « دوبريزفيل » فى قصرهما العتيق ، الكتيب .. وفيما عدا ذلك لم يعكر شىء تواتر حياتهما الرتيب الممض ..

وذات أصيل ، أقبل فى نحو الساعة الرابعة رجل وامرأة على صهوتى جوادين ، فدلف « جوليان » - الذى لمحمها - الى غرفة « جان » قائلا لها فى انفعال : « اسرعى .. اسرعى بالنزول ، فقد أقبل الزوجان « دى فور فيى » كى يطمئنا على صحتك .. قولى اننى فى الخارج ، واننى لن ألبث أن أعود ، ريشما أفرغ من ارتداء ثيابى »

ودهشت « جان » ، لكنها هبطت لتسقبل الزائرين .. وكانت المرأة شابة جميلة ، ذات وجه شاحب يشيع فيه الحزن ، وعينين واسعتين وضأبتين ، وشعر فاتم الصفرة .. وقد تولت تقديم زوجها الى « جان » ، فاذا مسيو « دوفور فيى » رجل قارع القامة ، احمر الشاربين ..

وكانت السيدة تتحدث فى غير كلفة ، وفى لهجة عادية وان كانت بالغة الاتزان والرقّة ، حتى لقد فتنت بها « جان » وأحببتها لفورها .. وقالت السيدة : « لقد قابلنا زوجك عدة مرات ، وسمعنا منه انك كنت متوعدة ، ومن ثم رأينا أن

لانرجی زیارتنا اکثر مما فعلنا • ولقد جننا - كما ترین -
 على الجیاد ، دون ماكلفة •• وقد حظینا بزيارة من أمك
 والبارون منذ فترة ••
 وحدثت « جان » نفسها قائلة : « هاهي ذی صديقة تونس
 وحشتی •• »

وكان الكونت « دوفورفيي » على النقيض من زوجته ، فقد
 بدا متضايقا في قاعة الاستقبال ، كارها للبقاء •• وما أن
 جلسوا حتى وضع قبعته على مقعد بجواره • وبعد أن تشاغل
 بالعبث بأصابعه بضع دقائق ، عقد يديه وكأنه يصلي ••
 ثم أقبل « جوليان » اذ ذاك ، وقد بدا أنيقا وسيما الى درجة
 لم تعهدها فيه « جان » منذ زمن ! •• كان حليق الذقن ،
 أنيق الملابس ، يلفه ذلك البهاء الذي كان عليه قبل زواجهما
 •• وصافح الكونت ، وقبل يد الكونتة ، التي تفرج وجهها
 بعض الشيء ! •• كان قد تغير تماما ، اذ استرد بشاشته
 القديمة ، وعادت عيناه الواسعتان المتألفتان تشعان حبا
 وحنانا من جديد •• وصار شعره - الذي كان منذ قليل
 مشعثا - ناعما ، لامعا ••

وعندما هم آل « دوفورفيي » بالرحيل ، قالت الكونتة
 لجوليان : « هل تشاركنی نزهتی على الحیل يوم الخميس
 ياعزيزی الفیکونت ؟ »
 فانحنى جوليان قائلا : « سيكون هذا من دواعی اغتباطی
 یاسیدتی »

وتناولت الكونتة يد « جان » بين راحتيها ، وقالت في
 ابتسامة عذبة : « لسوف نقوم ثلاثتنا بنزهات طويلة على الحیل
 حين تتحسن صحتك •• وستكون نزهات بدیعة ! » •• ثم
 التقطت عنان الجواد ، وقفزت بخفة الى سرجه ، بينما تبعها
 زوجها على جواده النورماندى الكبير ، بعد أن انحنى في شيء
 من الارتباك •• واذا اختفيا عن البصر ، قال جوليان لجان :

« يالهما من ساحرين ! .. انهما الطراز الذى يجدر بالمرء أن يكون على معرفة به »

— ان الكونتيسة الشابة لطيفة ، وأشعر بأننى سأحبها .. أما زوجها فيبدو ثقيل الظل .. أين قابلتهما ؟
وكانت « جان » سعيدة ، وان لم تدر لذلك سببا .. وأجاب « جوليان » وهو يفرك يديه : « قابلتهما لدى أسرة «دوبريزفيل» .. والزوج صياد لا يبارى .. ومع أنه جاف بعض الشيء ، إلا أنه نبيل حقا »

وكانا مبتهجين حين جلسا الى العشاء ، وكانما غشيت حياتهما سعادة مفاجئة !

★ ★ ★

♦ ولم يحدث بعد ذلك ما يستحق الذكر حتى نهاية شهر يوليو . ففي ذات مساء ، كان الزوجان يجلسان تحت شجرة ، حيث أقيمت مائدة من جذوع الاشجار ، استوت عليها زجاجة « كونيالك » أمام « جوليان » .. وفجأة ، صرخت « جان » واشتد شحوب وجهها .. وجرى فى كيانها ألم حاد ، لم يلبث ان اعقبه بعد دقائق ألم آخر أطول استمرارا من الأول . وعاونها زوجها وأبوها حتى بلغت حجرتها فى عناء شديد ، وهى لا تتمالك نفسها من الأثين والتخاذل ، وكأنها عاجزة عن تحمل ثقل جسمها الفادح .. ولم يكن موعد الوضع الطبيعى قد حان ، فخشوا أن يكون ثمة مكروه ، ولذلك أوفدوا سيمون العجوز لاستدعاء الطبيب ، فوصل عند منتصف الليل ، وأدرك لأول وهلة حقيقة الامر ، فأمر بأن تلزم «جان» فراشها .. وكان الألم قد خف نوعا ما ، بيد أن ثمة انقباضا عنيفا ملائ نفسها كأنه نذير الموت .. وامتلات الحجرة بالقوم .. كانت البارونة فى مقعد وثير تتنفس بصعوبة .. وفقد البارون صوابه ، فأخذ يتنقل من مكان الى آخر ، ويحضر أشياء مختلفة لم تكن هناك حاجة اليها .. ويستشير الطبيب فى كل دقيقة

٠٠ أما « جوليان » فراح يذرع الحجرة هادىء النفس ، رغم عبوسه ..

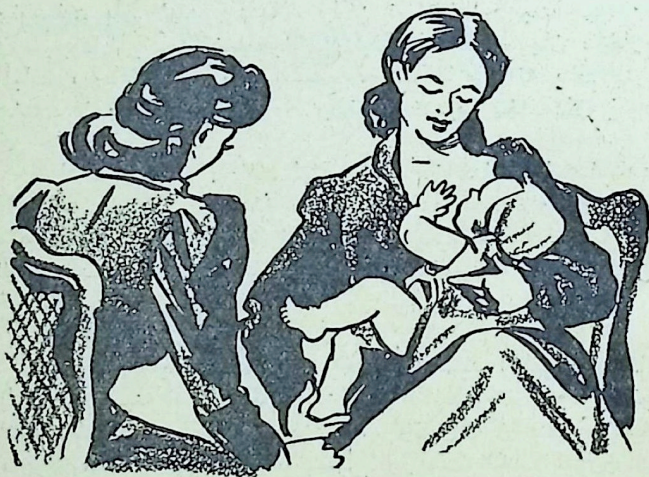
ووقفت عند ذيل السرير أرملة « دنتو » ، ووجهها خال من أية اماراة توحى بما كان يخالجها ، كأن لم يكن ثمة مايثير مشاعرها . كانت ممرضة ، ومولدة ، وموكلة بالعناية بالموتى ، فى آن واحد ! .. كانت تتلقى الوليد بين ذراعيها ، وتسمع صرخته الاولى ، وتغسله ، وتهدهده ، بنفس الشعور غير المكترث الذى كانت تبديه حين يحتضر امرؤ فتخف لتسمع آخر كلماته ، وتتلقى آخر أنفاسه .. اذ كانت هى التى تعد الموتى للدفن ، وتسهر على جثثهم ليلة اثر ليلة .. وانزوت لوديفين - الطاهية - والحالة ليزون فى أحد الاركان ، وقد لاذتا بالصمت

واخذت « جان » تنن بين وقت وآخر .. وقبل طلوع النهار ، غشيها ألم فظيع ، فتذكرت حال « روزالى » التى لم تكن تعاني أى ألم قبل أن يواتيها المخاض ، والتى انزلت طفلها الحرام الى الدنيا دون مجهد ! .. واذا قارنت «جان» بين نفسها و «روزالى» ، راحت - بتأثير وطأة آلامها - تسب الله الذى كانت من قبل « تظنه عادلا » ! .. وتلعن القدر الظالم الذى جعلها تتألم .. وكانت الاوجاع تشتد بها أحيانا حتى تشل تفكيرها وتفقدها كل احساس ، فلا تجد من القوة حتى ماتستجيب به للألم ! .. وكانت ، اذا خفت آلامها واستردت احساسها لبضع دقائق ، لا تقوى على أن تحول عينيها عن « جوليان » .. وأفعم قلبها أسى حين استعادت فى ذهنها تصرفه يوم وضعت « روزالى » طفلها .. تذكرت نظراته ، وحر كاته .. وهاهى ذى تشهد على وجهه نفس امارات التبرم ، وعدم الاكتراث ! .. ذلك الانفعال القلق ، وتلك الانانية .. مظهر الرجل الذى يحس بعبء جديد يهبط على كتفيه ! .. وفجأة ، استبدت بها نوبات عنيفة من الألم ، فحدثت نفسها:

« اننى أموت ! » ، واذ ذاك تملكها حقد متأجج على هذا الرجل ، ورغبة جامحة فى أن تلعنه ، وأن تلعن الطفل المجهول الذى يكاد يقتلها ! .. وجاهدت فى استماتة لبضع دقائق ، ثم كف الالم .. وزالت أوجاعها ..

وكان الطبيب والمرضة منحنين فوقها ، فشاهدتهما يتناولان شيئاً .. ثم سمعت عن الصرخة الشاكية التى سمعتها مرة من قبل .. فملأت قلبها ، وروحها ، وكل كيائها ، اشراقاً غريباً .. وبسطت ذراعيها بحركة غريزية ، وقد أفعم نفسها شعور من الدعة والفرح .. كانت سعيدة .. واواه، جد سعيدة ! .. لقد غدت أما ! .. وطلبت أن ترى وليدها . لم يكن له شعر ، ولا أظافر - اذ ولد قبل موعده - ولكن فرحتها لم تعرف حدوداً حين وضعوه بين أحضانها ! .. وشعرت أنها نجت .. وانها لن تعرف الحزن بعد اليوم .. وان طفلها الصغير كان درعها ضد القنوط !

.. لن تكون لها بعد الآن سوى فكرة واحدة .. طفلها ! وأحبته فى تطرف ، وتهوس ، كان مردهما الى شعورها بأنها خدعت وأصيبت بخيبة أمل فى حبها ! .. وتمسكت بأن يكون مهد الطفل بقرب سريرها دائماً . وكانت حين تقوى على النهوض ، تجلس ساعات تهز هذا المهد .. وأصبحت تغار من المرضعة ، فاذا بكى الصغير طلباً للثدى ، تولتها رغبة مجنونة فى أن تنتزعه وتقصيه عن المرضعة ، وأن تمزق ثدى هذه الفلاحة بأظافرها ! .. وكانت تصر على أن تصنع بنفسها كل قطعة من ثياب الطفل ، وتطرز له الملابس الجميلة ، حتى أصبح صوانه زائراً بالاشربة وقطع « الدنتيلا » .. ولم تكن تلقى بالا الى ما يقال حولها ، لكنها كانت لا تفتأ تقطع على القوم حديثهم لتدعوهم الى ابداء اعجابهم بقلنسوة جديدة للصغير ، أو مرولة بديعة ، أو شريط .. وكانت تتحسس كل قطعة



فی شغف ، وترفعها فی اعجاب وزهو قائلة : « ما أجمله حين يلبس هذه ! »

وكان البارون والبارونة يبتسمان عندئذ في حنان .. أما « جوليان » - الذي اضطربت عاداته في الحياة ، والذي بدأ يفار ، دون أن يفطن ، من الطفل الذي احتل مكانه في السيادة على البيت - فقد أخذ يكرر بصبر نافذ وغضب : « ما أشد تأثيره من ازعاج بطفله ! »

وأصبحت « جان » شديدة الكلف بطفلهما ، حتى لقد صارت تقضى لياليها جميعا الى جوار مهده ، تتأمله وهو نائم مضحية بأوقات راحتها .. حتى ضعفت صحتها ، واشتد هزالها ، وأخذت تسعل باستمرار ، فأمر الطبيب بأن ينقل الطفل الى غرفة الممرضة في كل ليلة .. وبكت « جان » ،

وتوسلت بأن لا يقصى عنها ، ولكن توسلاتها ذهبت هباء .. وأصبحت المرضعة تصطحبه كل ليلة ، فتقف « جان » خارج الباب ، حافية ، مرهفة السمع ، لتتأكد من انه ينعم بنوم هادى لا تشوبه شائبة .. والقلق يضنيها مخافة أن يكون فى حاجة الى شىء !

وعاد « جوليان » ذات ليلة ، بعد أن تناول العشاء لدى آل « دى فورفى » ، فبلغ الدار فى ساعة متأخرة .. واذا ذلك وجد « جان » فى وقتها المعتادة أمام باب المربية ! فلما كان اليوم التالى ، حبسوها فى غرفتها ليقسروها على أن تلزم فراشها ..

♦ وفى نهاية أغسطس ، احتفل بتعميد الطفل . وكان البارون أشبينه « ، والخالة ليزون « أشبينته » .. وأطلقوا عليه اسم « بيير سيمون بول » ، وقرروا أن ينادوه باسم « بول » .. وفى أوائل سبتمبر ، رحلت الخالة ليزون فى صمت وسكون كما جاءت ..

وذاث ليلة أقبل القس بعد موعد العشاء ، بادى الارتباك وكان فى ذهنه شيئا ما ! .. وبعد عدة محاولات غير مجدية للتمهيد للموضوع ، طلب الى البارونة والبارون أن يسمحا له بالحديث معهما فى خلوة لبضع دقائق ، فخرج ثلاثتهم من الدار ، وراحوا يذرعون فى تودة طريق أشجار « الحور » جيئة وذهابا ، ويتحدثون فى عبارات سريعة ، بينما كان « جوليان » يسائل نفسه - فى شك وقلق - عما بينهم من أسرار ! .. وعندما آن للقس أن ينصرف ، أصر « جوليان » على أن يصحبه الى مسكنه ..

وكانت البرودة لاذعة ، فدخلت الاسرة الى القصر .. وعندما عاد « جوليان » ، وجدهم قد أسلموا أنفسهم الى اغفاء - وهم فى مقاعدهم - فوقف فى فراغ الباب محتقن الوجه ،

غاضبا .. ولم يترى ليتبين ما اذا كانت « جان » موجودة بالفرفة ، بل صرخ في حميه وحماته : « لا بد انكما مخبولان اذ تمنحان تلك الفتاة عشرين ألفا من الفرنكات » !

وذهلوا جميعا ، فلم ينبسوا ببنت شفة ، بينما واصل « جوليان » صراخه بصوت أعلى من قبل : « لا بد انكما مجنونان ، مخرفان ! .. أتريدان أن تتركانا معدمين ؟ » وحاول البارون - الذي استرد بعض جأشه - ان يسكته ، فهتف : « صه ! .. ان جان هنا »

فصاح جوليان مهتاجا : « وماذا يعينى ؟ .. يجب أن تعرف كل شيء .. انها سرقة خسيصة ! »

وكانت « جان » تنقل بصرها من شخص الى آخر مبهوتة مشدوهة ، وهى تقول فى ارتباك : « فيم كل هذا ؟ »

فتحول « جوليان » اليها مفضيا بالخطه التى وضعت لزواج « روزالى » ، ولتسجيل مزرعة « بارفيل » - التى كانت قيمتها تعادل عشرين ألفا من الفرنكات - باسم الطفل ، ابن الخادمة .. ! ثم أخذ يكرر : « ان أبويك مجنونان يا عزيزتى .. جنونا أهوج ! .. عشرون ألفا من الفرنكات ! .. عشرون ألفا من الفرنكات لطفل غير شرعى .. ابن حرام ؟ ! .. لقد فقدنا عقليهما تماما ! »

وانصنت « جان » هادئة ، ساكنة ، مذهولة ، غير حافلة بشيء - ما دام لا يمس طفلها ! - بينما انفجر « البارون » يصيح ، وهو يدق الارض بقدمه : « اكبح جماح أعصابك .. انه لأمر مثير حقا ! .. ذنب من هذا الذى اضطرنا الى أن نعى بهذه الفتاة ؟ .. طفل من هو ؟ .. ومع ذلك تريد ان تهجره وتنبذه ! .. شيئا من الخجل ! »

وبهت « جوليان » لثورة البارون ، واجفل .. ثم عاد يقول فى لهجة هادئة : « ان ألفا وخمسمائة فرنك تكفى .. كل فتيات المنطقة يرزقن أطفالا قبل زواجهن ، ولا يعنى احد

بالتحرى عن والد أى طفل تنجبه احداهن ، بل ان مجرد منحكما اياها صداقا (دوطه) كفيل بأن يثير شكوك الناس .. كان ينبغى أن تفكرا فى سمعتنا ، ومكانتنا ، على الأقل »
 وكان يتكلم فى قوة ، شأن رجل واثق من نفسه ، ملم تماما بما يتحدث عنه ! .. فأفحم البارون ، ولم يجد ما يقوله ازاء حجة كهذه ، فأسرع « جوليان » يستغل موقفه قائلا :
 « من حسن الحظ ان شيئا لم ينفذ بعد ، وأنا أعرف الرجل الذى يرغب فى الزواج من « روزالى » ، وهو رجل طيب ، ومن الممكن تسوية كل شيء معه على وضع معقول .. لسوف أقابله وأدبر الأمر .. »

وأسرع يغادر الغرفة خشية أن يتجدد الجدل ، مستغلا صمت الجميع ليعتبره قبولا ورضى بوجهة نظره ! .. وما ان اختفى ، حتى استرد البارون جأشه ، فصاح : « اواه ! .. هذا أكثر مما ينبغى ! » .. فتأملت « جان » وجه أبيها المربد ، وانفجرت مقهقهة بتلك الضحكة الصافية التى كانت تنبعث منها فى الماضى كلما سمعت حديثا مضحكا .. ثم قالت : « أسمعت كيف نطق (عشرين ألفا من الفرنكات) يا أبى ؟ »

وكانت البارونة سريعة الاستجابة للضحك ، قدر ما كانت للبكاء ، فاشتريكت مع « جان » وضجت بالضحك اذ تذكرت وجه زوج ابنتها الغاضب ، وكلماته وحركاته العنيفة ، واصراره على ان لا تمنح الفتاة التى أغواها من مال ليس له فيه شيء ! .. وأسعد الام ما بدا على « جان » من مرح ، فظلت تضحك حتى انسابت الدموع على خديها .. كما اشترك البارون بدوره معها ، فراح ثلاثتهم فى ضحك هنىء ، متناسين كل شيء آخر - كما اعتادوا فى أيامهم السالفة السعيدة - وعندما هدا ضحكهم فى النهاية قالت « جان » :

- أليس من الغريب اننى لم أعد أثأثر لشيء .. ؟ انه

يبدو لي كغريب عني ، فلست أستطيع أن أتصور اننى زوجته
 .. ألا تريان كيف أضحك من وقاحته ؟! »
 وتبادل ثلاثتهم القبل فى حنان ، وهم ما زالوا يبتسمون

♦ وبينما كان جوليان خارجا فى نزهته المعتادة على
 جواده ، بعد يومين ، اذا بشاب طويل ، عريض المنكبين ،
 فى نحو الخامسة والعشرين من عمره - يرتدى صدارا أزرق
 جديدا مما اعتاد الفلاحون أن يلبسوه - يتسلل فى حذر ،
 وكأنما كان فى ارتقاب هذه الفرصة منذ الصباح .. فسار
 الى سياج مزرعة « كويار » ، ثم دلف فى النهاية بعد دورة
 طويلة الى قرب الشجرة التى كان البارون والمرأتان لا يزالون
 جلوسا تحتها ، فرفع قبعته وانحنى فى ارتباك ، حتى اذا
 ازداد اقترابا ، قال متلعثما : « أنا ديزيريه ليكوك »
 ولم يوح اليهم الاسم بشيء ، فسأله البارون : « وما الذى
 تبغيه ؟ »

واذ أحس الفلاح بضرورة الايضاح ، ازداد ارتباكا ، وأخذ
 يلوى قبعته بين يديه ، ثم قال فى النهاية : « لقد حدثنى الاب
 المبجل عن تلك المسألة .. » ، وأمسك عن المضى فى الكلام ،
 خشية ان يسجل على نفسه شيئا ، فقال البارون الذى لم
 يفهم من الأمر شيئا : « أية مسألة ؟ .. عم تتكلم ؟ »
 وعقد الفلاح عزمه أخيرا على الايضاح ، فقال فى صوت
 خفيض : « أفصد مسألة روزالى ! »

وكانت « جان » قد حدست ذلك ، فبادرت الى مغادرة
 المكان وطفلها بين ذراعيها . واذا ذاك أشار البارون الى المقعد
 الذى أخلته وقال : « تعال هنا » .. فجلس الفلاح متمتما فى
 حياء : « هذا كرم منكم » . ثم سكت ، كأن لم يعد لديه
 ما يقوله ! وبعد فترة صمت طويلة ، تطلع الى السماء ، وقال :
 « اننا نحظى بجو أجمل مما يتوقع فى مثل هذا الوقت من »

العام . سيكون هذا فى صالح المحصول » . ثم ركن الى الصمت ثانية !

وازداد ضجر البارون ، فقال فى صراحة : « اذن فانت على استعداد للزواج من روزالى ؟ »

فأجفل الفلاح لهذه الصراحة ، كمن خشى أن يقيد نفسه بشئ ، وأجاب بالمرأغة الماثورة عن فلاحى نورماندى : « ربما كان الجواب : نعم ، وربما كان : لا . الامر يتوقف . »
 .. فقال البارون وقد أثارته مرأغة الفلاح : « ويحك ! أجب .. هل تأخذها ؟ نعم ، أولا ؟ »

وتولت الرجل الحيرة ، وأخذ يحملق فى قدميه ، ثم قال : « اذا حصلت على ما وعد به الاب المبجل ، أخذتها .. أما اذا كنت لا أنال سوى ما قال به السيد جوليان ، فلن أقبل ! »
 - وماذا قال السيد جوليان ؟

- قال السيد جوليان اننى سأحصل على ألف وخمسمائة فرنك .. وقال الاب المبجل اننى سأحصل على عشرين ألفا من الفرنكات .. لسوف أقبلها لقاء عشرين ألفا .. وليس لقاء ألف وخمسمائة !

وكانت البارونة جد مذهولة لمكر الفلاح ، فأفلتت منها ضحكة حاولت ان تكبحها .. وساء الفلاح ذلك - فهو لم يكن يرى داعيا لضحكها ! - فرمقها بنظرة حاقدة من طرف عينه .. وقال البارون فى لهجة من يحسم الامر ، اذ لم ترق له المساومة : « لقد قلت للاب المبجل اننى سأعطيك مزرعة « برافيل » لتستغلها أثناء حياتك ، على أن تؤول للطفل بعد موتك ، ولست ممن يرجعون عن وعودهم . والمزرعة تساوى عشرين ألفا من الفرنكات ، فهل تقبل أو لا تقبل ؟ »

فتهلل وجه الفلاح فى ضعة ، وتحول فجأة الى ثرثار : « أواه ! .. اذا كان الامر كذلك فلن أقول لا . لقد كنت - حين كلمنى الاب المبجل - على أتم استعداد ، وقلت لنفسى :

« سيرضى هذا سيادة البارون ، فى حين اننى لن أخسر شيئا من وراء ذلك » .. على ان السيد جوليان - حين جاءنى - لم يبد رغبة فى أن يعطينى سوى ألف وخمسمائة ، فقلت لنفسى : « يحسن أن تتبين جلية الأمر » ، لا لائنى كنت ضعيف الثقة ، وانما لاننى وددت أن أعرف .. فالفعل عمل يا صاحب السيادة ! » .. فقاطعه البارون قائلا : « ومتى تكون على استعداد للزواج ؟ »

فعاد الفلاح الى خجله وحيائه وارتابكه ، وقال فى تردد : « الا نكتب بيننا وثيقة أولا ؟ »
وعندئذ أفلت من البارون زمام أعصابه ، وصاح منفعلا : « يا للجنة ! .. ستكون لديك وثيقة الزواج ، وهى خير وثيقة فى يدك » .. بيد ان الفلاح أصر على ان يسأله : « أجل ، ولكننى مع ذلك أحب أن أسجل الاتفاق ، وليس فى هذا من ضير »

فنهض البارون قائلا : « اسمع ، أجب بنعم أو لا فورا . اذا لم تكن راغبا فى القبول ، فصارحنى ، لأن لدى خطيبا آخر لها »

وخشى النورماندى الماكر خطر المزامحة فبسط يده للبارون كعادة القوم حين يبرمون صفقة ، وقال : « هذه يدى .. لقد اتفقنا ! »

فصافحه البارون وصاح بالطاهية : « لوديفين .. احضرى لنا زجاجة نبيذ »

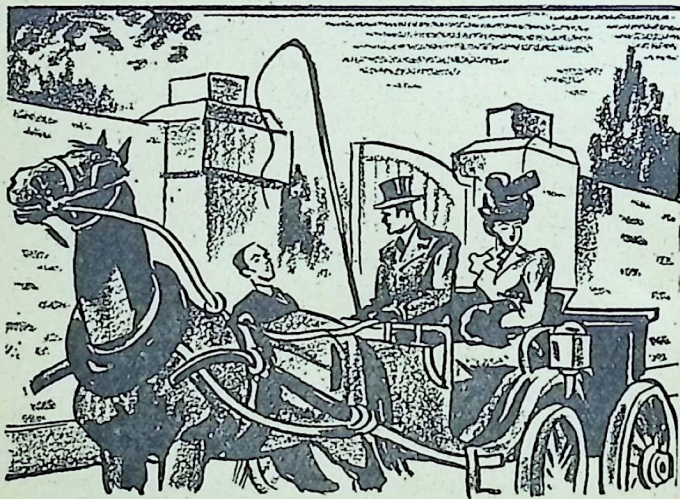
واحضرت المرأة النبيذ ، فشربا نخب الزواج المرتقب ، ثم رحل الفلاح مغتبطا ..

♦ ولم يذكر لجوليان شىء عن الأمر ، بل أبرم العقد سرا ! وفى صباح يوم الاثنين من أحد الاسابيع ، تم الزواج . وحملت احدى الجارات الطفل وراء العروسين ، كرمز أكيد

للرخاء ! .. ولم يدهش أحد ، بل انهم غبطوا « ليكوك » على
حظه الحسن . وقالوا وهم يتغامزون في مكر لا يشمو به خبث :
« لقد ولد محظوظا ! »

.. وحين علم جوليان - بعد أيام - بما جرى ، قامت
مشاجرة عنيفة ، عجلت برحيل البارون والبارونة ! ولم تكن
« جان » حزينه لسفر والديها في هذه المرة ، حزنها في المرات
السابقة ، فقد أصبح « بول » مصدرا دائما لسعادتها ..
بل انه غدا في الواقع قبلة حياتها الوحيدة





الفصل التاسع

♦ واستردت « جان » صحتها بمرور الايام ، فاقترح « جوليان » أن يردا للزوجين « دى فورفيى » زيارتهما ، وأن يزورا مركز « دى كوتلييه » كذلك . . . وكان « جوليان » قد اشترى فى احدى حلقات المزايذة عربية لا تحتاج الى غير جواد واحد ! . . . وفى صباح يوم صحو من أيام ديسمبر ، شد الجواد الذى جمع لونه بين الحمرة والسواد ، الى العربية الجديدة ، وانطلقت « جان » و « جوليان » فى طريقهما الى منزل آل « دى فورفيى » . وكانت قلعة « لا فريليت » محوطة من أحد جانبيها - ببركة كبيرة لتربية الاسماك ، ومن الجانب الاخر بغابات صنوبرية . وكان من الضروري لبلوغ

مدخل القلعة أن يجتاز الزائر جسرا أثريا من النوع الذي يرفع ويخفض بالسلاسل الحديدية ، ثم يمر خلال بوابة حديدية ضخمة تمت الى عصر لويس الثالث عشر . وكانت القلعة ذاتها ترجع الى هذا العصر ، وقد وصف « جوليان » كل جزء من أجزائها لجان ، وكأنه يعرفها أوثق المعرفة . . . ومضى يقول لها : « الا انظرى الى هذا المدخل . . . ألا ترينه رائعا ؟ . . . انظرى الى ذاك المبنى . . . يا لجلال منظره ! . . . ان الجانب الآخر بأكمله يواجه البركة ، وهناك شرفة واسعة تفضى اليها . . . وأربعة زوارق ترسو هناك . . . اثنان للكونت ، واثنان للكونتة . . . والى اليمين ، حيث ترين أشجار الحور تلك ، يقع طرف البركة ، ومن ثم يبدأ النهر ، ويتجه مباشرة الى (فيكامب) . . . ويحب الكونت أن يمارس على صفحة هذه البركة صيد البط ، فهي مليئة بالطيور المائية . . . هذه هي الدار التى تسمى حقا بالقلعة ! »

وفتح الباب ، وبرزت منه الكونتة ، فأقبلت تستقبل الزائرين وقد بدت فى ثوب ذى ذيل يظهر جمال قوامها الممشوق ، ويضفى عليها مهابة وجلالا . . . كانت تبدو خير صورة للآطار الرائع الذى كان يحيط بها ! . . . وتقدمتهما الى قاعة الاستقبال ، فاذا بها قاعة هائلة ، ذات ثمانى نوافذ، تطل أربع منها على البركة . . .

وأمسكت الكونتة بيد « جان » وكأنها كانت تعرفها طيلة عمرها ، ودعتها الى الجلوس ، ثم جلست قريبة منها على مقعد منخفض . وكان جوليان - الذى استرد خلال الأشهر الخمسة الاخيرة بشاشته ومرحه - يبتسم ويتكلم فى انطلاق وغير كلفة . وأخذ الكونتة يتحدثان عن جولاتهما على صهوتى جواديهما ، فكانت هى تسخر من ركوبه ، داعية اياه بـ « الفارس المتعثر » ، بينما كان هو يسميها بـ « ملكة القنطروس » ، اشارة الى ذلك الحيوان الخرافى الذى كان

الاغريق يرسمونه على شكل حصان اوتى رأس أنسان
وصدره ..

وتردد صوت مقدوف نارى تحت النوافذ ، واذا الكونت
يصطاد ، فنادته زوجته ، وسرعان ماسمعوا صوت مجذافين
يضربان فى الماء ، ثم صوت قارب يرتطم فى رفق بالجدار
الحجرى .. ومالبث الكونت ان ظهر ، يتبعه كلبان يقطر
جسماهما ماء ، وقد لوحتهما السمرة مثله ، فتمددا على الحصير
عند عتبة الباب .. ولاح الكونت فى داره أكثر بشاشة مما كان
أثناء زيارته لقصر أشجار الحور ، فأبدى سروره لمراى «جان»
و «جوليان» ، وأمر بتغذية المدفأة بمزيد من الحشب ، وبأن
يحمل اليهما نبيذ وكعك .. ومالبث أن هتف فجأة : « لسوف
تتناولان العشاء معنا بالطبع ؟ » .. وأبدت جان - التى لم
تنس طفلها لحظة - تمنعا ، بيد ان الكونت ألح ، فلما أصرت
فى عناد ، أشار اليها جوليان بصبر نافذ ، فقبلت فى آخر
الامر خشية ان تثير طبعه الشرس البغيض ، وان ظلت قلقة
متبرمة لانها لن تستطيع أن ترى « بول » حتى الصباح التالى !

وقضوا وقتا بهيجا ، فزاروا عيون الماء .. ثم مضوا الى
نزهة فى البركة ، وقد تولى الكونت التجذيف ، وكلبياه يحقان
به فى مجلسه ، وقد رفعاً أنفيهما فى الهواء .. وجلست «جان»
وحيدة ، تغمس يديها فى الماء من آن الى آخر ، متلذذة
بالقشعريرة التى كانت تسرى فى بدنهما حين تلمس الماء البارد .
أما «جوليان» والكونتة ، فقد جلسا فى المقعد الخلفى ، يبسم
كل فى وجه صاحبه ، تلك الابتسامة التى تنم عن خلو بال
وعدم احتفال بالايام .. ابتسامة أولئك الذين يحسون انهم
فى أوج السعادة .. وما لبث الفسق أن اقترب ، وراحت
الشمس تنحدر بسرعة خلف اشجار الصنوبر العملاقة ..
وكانت حمرة السماء تبعث فى المرء شعورا بالقر !

وعادوا الى قاعة الاستقبال ، حيث وجدوا نارا كبيرة مستعرة ، ترسل دفئا كافيا جعلهم يشعرون جميعا بغبطة ناعمة .. وأمسك الكونت - اذ أحس بالسعادة - بزوجته بين ذراعيه القويتين ، فرفعها كطفل صغير ، وطبع على وجنتيها قبلتين تردد لهما صوت ! .. وابتسمت « جان » لهذا العملاق الضخم الطيب القلب الذى يصفه الجميع « بثقل الدم » ، وقالت لنفسها : « ما أكثر ما نخطيء ! » .. والتفتت عفوانحو « جوليان » ، فبهتت لما بدا على أساريره : كان يقف فى المدخل مفرط الشحوب ، يحملق فى الكونت ، فسألته جان : « أمرض أنت ؟ .. ماذا دهاك ؟ »

وأجاب محنقا : « لا شئ .. لقد أصبت ببرد ، فدعيني وشأنى »

واذ انتقلوا الى قاعة المائدة ، استأذن الكونت فى أن يصحب كلبيه اللذين استلقيا الى جانبيه يبصبسان بذيلهما فى ابتهاج ، ويمجران فى رضى .. وكان الكونت يلقي اليهما بقطع من اللحم بين فترة وأخرى ، ويربت آذانهما الحريرية الملمس !

وعندما تهيأت « جان » و « جوليان » للانصراف بعد العشاء ، سألهما الكونت « دى فورفيى » أن يبقيا فترة أخرى ، ليشاهداه وهو يصطاد السمك على ضوء المشعل .. وتركهما فى الشرفة مع زوجته واستقل احد القوارب ، يتبعه خادم يحمل شبكة صيد ومشعلا .. وألقى ضوء المشعل ظللا غريبة على الاشجار ، وبدا الكونت وهو واقف فى القارب ، أشبه بمارد جبار .. وحين رفع الشبكة التى كانت بين يديه ، بدت ذراعاها كأنما كانتا تتطاولان الى النجوم .. ثم أنزلهما فسمع الثلاثة الذين كانوا فى الشرفة صوت ارتطام بالماء ، وعاد ظله يتراءى منعكسا على

جدار القلعة .. ومالبث أن صاح قائلاً : « لقد أمسكت بثمان
ياجيلبرت » .. وان هـى الا لحظة حتى أقبل يصعد الدرجات
- والخدام يتبعه حاملا المشعل - وألقى شبكته على أرض الشرفة
وفى النهاية استأذنت جان وجوليان فى الانصراف ، بعد
أن تدثرا بأغطية أعارهما اياها صديقاها .

وقالت «جان» لجوليان بعد خروجهما : «ياله من طيب لطيف
.. هذا العملاق ! » .. فأجاب جوليان : « أجل ، ولكنه
لا يعرف كيف يحسن التصرف أمام من يكونون فى مجلسه ! »

★ ★ ★

♦ **وذهب** بعد أسبوع لزيارة أسرة « دى كوتلييه » التى
كانت تعتبر أعرق أسرة فى الريف . وكانت قلعة الاسرة
الجديدة فى « رميفيل » قد شيدت فى أثناء حكم لويس الرابع
عشر ، فى أحضان متنزه رائع محوط بأسوار حجرية .. بينما
كانت أطلال القلعة القديمة فوق التل . وأوصل خادم - فى
ثياب رسمية خاصة - الضيفين الى قاعة فسيحة ، فخمة ،
تتوسطها قاعدة استوت عليها آنية هائلة من « السيفر » .
وفى قاع هذه الآنية كان ثمة إطار يضم خطابا بتوقيع الملك،
يتوجه فيه العاهل الى المركز « ليوبولد - هرفيه - جوزيف -
جيرميه دى فارنفى دى رولبوسك دى كوتلييه » ، راجيا منه
أن يتقبل الآنية هدية منه !

وكانت «جان» و « جوليان » يتأملان هذه الهدية الملكية
فى اعجاب ، حين ولج القاعة المركز وزوجته .. وكانت
المساحيق تنتثر على شعر المركيزة - جريا على ماكان عليه القوم
يتبعونه فى الزينة اذ ذاك - ومالبثت بشاشة المركيزة أن
أصبحت اصطناعا فاترا ، وبدا مسلكها زريا تحت تأثير
غطرسنها وماكان يتولاها من رغبة فى أن يكون كل ماتبديه

« ماثـر » تتكـرم بها على الغير ! .. أما المركز فكان لدينا ،
 ذا شـعر أبيض ينتصب ثائراً فوق رأسه .
 وكان صوته ، وحر كاته ، بل مسلكه كله فى الواقع ، يفيض
 بالصلف والحياء ، وكأنه يبغى أن يشعر زائريه بمدى مكانته
 وأهميته ! .. وبالاختصار فقد كان الزوجان من عبيد
 « الاتيكيت » - قواعد السلوك - يسير تفكيرهما وأعمالهما كلها
 وفقاً للأصول السليمة ، فى تزمت بالغ ! .. وكانا يمضيان
 فى الحديث دون أن ينتظرا جوابا .. ويبتسمان بحركة آلية ،
 وكأنهما يؤديان واجبا تحتمه عليهما مكانتهما التى تضطرهما
 الى استقبال من يقلون عنهم فى الدرجة من أعيان الريف !
 وحاولت « جان » و « جوليان » أن يلطفا من جو الزيارة
 جهدهما ، بيد أنهما كانا يستشعران حرجا منها ، خشية أن
 يمكثا أطول مما ينبغى .. ومع ذلك فقد ادركتهما الحيرة فلم
 يدريا كيف يستأذنان فى الانصراف .. على أن المركيزة لم
 تلبث أن أنهت بنفسها الزيارة ، وذلك بالتوقف عن الحديث
 فجأة ، كملكة تصرف رعيتهما من حضرتها فى أدب !
 وفى طريقهما الى دارهما ، قال جوليان : « اذا راقك فسوف
 نحد من زيارتنا لآل « دى كوتلييه » .. فانى أرى أن هذه
 الزيارة تكفى » .. ووافقته « جان » على رأيه ..

★ ★ ★

♦ وانقضى شهر ديسمبر فى بطاء شديد .. ومنيت « جان »
 بعين مامنيت به فى العام السابق من اضطرار الى ملازمة الدار ،
 لكنها لم تستشعر وحدة فى هذه المرة ، اذ كان التفكير فى
 « بول » خير شاغل لها .. وكان جوليان لا يفتأ يبدى الاستياء
 والضيق كلما رأى الطفل ، سيما حين كانت « جان » تحمله
 أحيانا بين ذراعيها ، وتظل تقبله وتدله بذلك الحنان المسرف
 الذى يجرف الامهات فى بعض الاوقات ، ثم تقربه الى جوليان

قائلة : « لم لا تقبله ؟ » لا يبدو عليك انك تحبه ! » .. فكان جوليان ينحنى على كره شديد منه ، ويلمس جبهة الطفل بشفتيه ، وهو يحرص على ان يكون على مسافة منه ، كما لو كان يخشى أن يلمس جسمه يدى الصغير المضمومتين .. ثم لا يلبث أن يبادر بعد ذلك بالانصراف ، وكان منظر الطفل قد ملا نفسه تقززا !

وكان العمدة ، والطبيب ، والقس ، يدعون الى العشاء فى الدار من وقت الى آخر ، وكذلك الزوجان « دى فورفيى » اللذان ازدادت علاقتهما بجان وزوجها توثقا . وكان الكونت « دى فورفيى » لا يخفى حبه لبول ، فاذا جاء الى قصر شجر الحور ، حمل الصغير على ركبتيه طيلة الوقت فى بعض المرات . وكان يتناوله برفق بين يديه كأنه يخشى أن تؤذيه يده الضخمتان .. ويحك أنفه بشاربيه ، وقد يقبله أحيانا فى شغف .. فقد كان مبعث أساء دائما أن زواجه لم يثمر أطفالا !

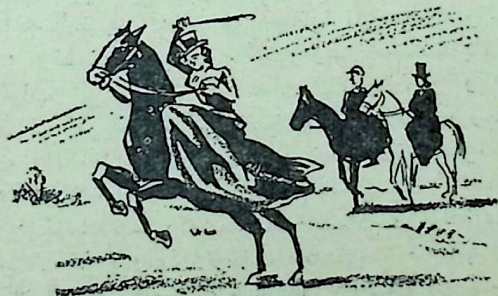
وأقبل شهر مارس مشرقا ، صحوا ، يكاد يشبه الحريف . وعادت الكونتة « جيلبيرت دى فورفيى » تتحدث عن الخروج فى نزعات طويلة على ظهور الخيل ، فبادرت « جان » الى الموافقة ، اذ كان قد أمضها السأم من حياتها الرتيبة المتواترة ، ليل نهار .. وقضت أسبوعا بأكمله وهى سعيدة بالانهماك فى اعداد ثياب الركوب ، ثم بدأت النزعات . وكانوا دائما ينطلقون فى فريقين ، كل اثنين معا : الكونتة وجوليان فى المقدمة ، والكونت وجان على بعد نحو ثلاثين مترا منهما .. وكان هذان الاخيران يندمجان فى الحديث كأنهما صديقان قديمان . كانت نفس كل منهما ، الساذجة المستقيمة ، تتجاوب مع نفس الآخر ، ولهذا توثقت صداقتهما .. أما الاخران ، فكانا يتحدثان فى همس ، ويضحكان أحيانا فى غير قصد أو

اعتدال .. ثم لا تلبث نظراتهما أن تلتقي ، وكأنها تحمل حديثا لا يقويان على الجهر به ، فيلكزان جواديهما ويركضان بعيدا ، كأنما مستهما رغبة جنونية في أن يختفيا عن الانظار! وكان صوت جيلبيرت ينبعث من بعد أحيانا منفعلا ، قيلتفت الكونت الى « جان » ويقول مبتسما : « ان زوجتي ليست دائما مريحة ! »

وذات مساء ، كانت الكونتة أشد انفعالا - أثناء العودة - مما كانت في أى يوم ، حتى انها أهاجت مهرتها ، ثم كبحت جماحها فجأة ، فكرر جوليان النصح لها مرارا : « حذار بالله ! .. لسوف يجمع جوادك »

لكنها أجابت : « وماذا يهمنى ؟ .. لا شأن لك بى » وبدأت كلماتها واضحة ، جافة ، وهى تشق الهواء الراكد . وتقهرت المهرة المحتاجة ، وأزبدت ، فتملك القلق الكونت وصاح بزوجته : « انتبهى يا جيلبيرت ! »

لكن الكونتة تولوها العناد ، فألهبت المهرة بضربة قاسية بالسوط بين أذنيها ، فشبت الفرس الهائجة على ساقيهما الخلفيتين ، ثم اندفعت فى الطريق بسرعة مروعة .. وانطلقت كالطائر بين المروج والحقول المحروثة ، وقد التصقت بها



الكونتة متشبثة ، حتى تعذر تمييز الراكبة عن الفرس ..
وسمر « جوليان » لفرط الذعر ، وكأنما شل حراكه ، وراح
يهتف فى خور : « سيدتى ! .. سيدتى ! »

وانحنى الكونت على جواده النورماندى الكبير ، وأخذ
يستحثه بسوطه ومهمازيه ، ثم اندفع فى اثر زوجته حتى
غاب عن البصر .. و « جان » ترقبه الى أن اختفى .. واذ ذاك ،
اقترب « جوليان » من « جان » وقال ساخطا : « انها اليوم
مخبولة على ما أعتقد ! »

واقتفيا آثار صديقيهما .. وان هى الا خمس عشرة دقيقة ،
حتى رأياهما عائدين ، فانضما اليهما .. وكان الكونت متورد
الوجه يتصبب عرقا ، لكنه كان يبدو سعيدا ، وأخذ يضحك
فى ابتهاج وفوز وهو ممسك بعنان جواد زوجته بقبضة قوية ..
أما وجه « جيلبيرت » فكان شديد الامتقاع ، مكفهر ، وقد
مالت على كتف زوجها ، كأنها توشك أن تقع مغشيا عليها .
ومنذ ذلك اليوم ، أدركت « جان » أن الكونت كان مدلها فى
هوى زوجته الى حد الجنون !

وخلال الشهر التالى كانت الكونتة أكثر اشراقا مما بدت
فى أى يوم مضى .. وكثر تردها على قصر « الحور » ، حيث
صارت ترى دواما مرحة ، ضاحكة . وكانت عواطفها تفيض
أحيانا ، فتقبل « جان » فجأة وكأنما غشيت حياتها سعادة
غامضة ! .. وكان زوجها لا يكاد يحول بصره عنها ، سعيدا
بسعادتها ، يحاول فى كل دقيقة أن يلمس يدها وثوبها ..
وذات مساء ، قال لجان : « اننى الآن فى أوج السعادة .
قط لم تكن « جيلبيرت » هكذا .. أصبحت مكتملة الاتزان ،
لا تنفعل قط ، ولم تعد تغضب .. لقد كنت مرتابا فى مدى
حبها لى ، أما الآن فأصبحت أدرك كم تحبنى ! »

وتغير حال جوليان هو الآخر ، فأصبح أكثر إشراقا ،
وألطف مودة ، كما لو كانت الصداقة بين الاسرتين قد بثت
فيه سعادة وسكينة ..

★ ★ ★

♦ وبدأ الربيع مبكرا ، دافئا على غير المعتاد ، وأحسنت
«جان» بأن عواطفها أصبحت مرهفة الى حد عجيب .. كانت
أحيانا تشعر بالأسى يرين عليها لمجرد رؤية زهرة صغيرة ،
فتقضى ساعات على هذه الحال .. وملاّت نفسها الذكريات
الخلوة لايام حبها الاولى ، لا لأن حبها لجوليان قد تجدد - فقد
ذهب هذا وانقضى الى الابد - ولكن لأن كيائها بأسره كان
متأثرا بانفعال عجيب ، وكأنما استيقظ في أعماقها شعور
خفي حنون .. وأصبحت تميل الى أن تخلو الى نفسها ،
وتستسلم لأشعة الشمس الدافئة ..

وذات صباح ، كانت مستغرقة في أحلامها تلك ، حين مرت
أمام عينيها صورة .. صورة تلك البقعة من الغابات القريبة
من « اتريتا » حيث ازجى اليها الشاب الذي كان اذ ذاك يحبها ،
كلمات الهوى العذبة للمرة الاولى .. ففي تلك البقعة حلمت
بالمستقبل المشرق ، وبتحقيق جميع آمالها .. وودت لو ترى
هذه البقعة مرة أخرى ، كي تقوم بحج « عاطفى » اليها ، وكأنما
كانت رؤيتها كفيلة بأن تبعث في حياتها تغيرا جديدا !

وكان « جوليان » قد خرج منذ الصباح ، ولم تدر « جان »
اين ذهب .. فأمرت بأن يسرج لها الجواد الابيض الصغير ،
ثم انطلقت في رحلتها .. وكان اليوم بديعا ، صافيا ، من
تلك الايام التى تغشى فيها السكينة الاعشاب والاشجار وكل
شئ ، كما لو كانت الطبيعة كلها نائمة ! .. ومضت « جان »
وثيدا ، والجواد الابيض الصغير يسير على هواه .. كانت

سعيدة بأحلامها .. وهبطت الى الوادى المفضى الى البحر ،
 واجتازت القوس القائم بين التلال ، والذي يلقب باسم باب
 « اتريتا » ، ثم مضت فى الغابات لتلقى نظرة على البقعة التى
 كان قلبها يحن الى رؤيتها .. وضربت فى الممرات المتشابكة ،
 بيد أنها عجزت عن أن تجد البقعة .. وفجأة ، لمحت على البعد
 - وهى تجتاز طريقا واسعة - جوادين مسرجين مربوطين الى
شجرة .. وعرفتتهما على الفور .. كانا جوادى « جوليان »
 و « جيلبرت » .. وكانت « جان » قد بدأت تضيق بوحدتها ،
 فطاب لها اللقاء غير المرتقب .. واستحثت جوادها متعجلة
 مقابلتهما .. حتى اذا بلغت البقعة التى كان الجوادان ينتظران
 فيها صابرين ، وكانهما تعودا الانتظار طويلا ، نادى صاحبهما
 .. ولكنها لم تتلوردا .. وكان ثمة قفازان نسايان ، وسوطان
 ملقاة على الاعشاب ..

وتمتعت لنفسها فى صوت هامس : « لا شك انهما كانا
 هنا ، ثم سارا قليلا على أقدامهما .. وانتظرت خمس عشرة
 دقيقة ، ثم عشرين ، وهى فى دهشة من غيابهما .. وكانت
 قد ترجلت عن جوادها ، واستندت الى شجرة .. وحلق
 عصفوران ثم اقتربا من المكان الذى كانت تقف فيه جامدة دون
 حركة ، حتى انهما لم يفتنا اليها ، فأخذ الذكر يحوم حول
 أليفته ، يحنو عليها ويشقشق مغردا .. وراقبتهما « جان »
 وهى تفكر : « لقد نسيت اننا .. فى الربيع ! »

واذ ذاك خامرتها فكرة .. نوع من الشك .. وعادت تنظر
 الى القفازين ، والى السوطين ، والى الجوادين المهجورين ، وفجأة ،
 قفزت على صهوة جوادها وانطلقت مبتعدة .. واستحثت
 جوادها فركض عائدا بها ، وهى تجهد ذهنها فى محاولة ربط
 الوقائع بعضها ببعض : كيف لم تستطع أن تستنتج جلية
 الأمر قبل الآن ؟ .. كيف عميت عن الحقيقة الى هذا الحد ؟ ..

لماذا لم تحدث الباعث لجوليان على الخروج في هذه النزعات الطويلة ، وما أخذ يزجيه لها فجأة من غزل ، وما يديه من بشاشة ومودة وحسن طباع ؟ .. وتذكرت طباع « جيلبرت » المتقلبة ، وفورات عواطفها المفاجئة ، وانفعالها الذي لا مبرر له ، ثم ذلك التغير المباغت الذي اعتراها أخيرا .. فأسعد زوجها !

وكبحت « جان » جوادها ، اذ كانت سرعته تضايقها وهي تريد أن تفكر ، وتفكر بامعان ! .. وبعد دقائق ، تماكنت جأشها .. لم يخامر قلبها شيء من الغيرة ، وانما كان كل ما داخله هو الاحتقار ! .. بل انها لم تفكر في « جوليان » ، فما كان أى تصرف يقدم عليه ليثير دهشتها ، وانما أثارت نفسها خيانة الكونتنة ، صديقتها ! .. أو ليس في هذه الدنيا سوى الغدر ، والغش ؟ .. على انها عقدت عزمها على أن تخفي مشاعرها ، وتوصد قلبها منذ اليوم دون أى انسان ، عدا « بول » وأبويها .. وكل ما عدا ذلك ، اعتزمت ان تتحمله في هدوء .. وسكينة !

★ ★ ★

♦ وما أن بلغت الدار ، حتى حملت « بول » الى غرفتها ، وأخذت تقبله دون هوادة لساعة كاملة ! .. وأقبل « جوليان » في موعد العشاء ، مفرط البشاشة ، بادي اللطف .. وسأل جان : « ألن يأتى أبواك هذا العام ؟ »

وحمدت له « جان » هذه الإشارة ، حتى أوشكت أن تنسى ما اكتشفته في الغابات ! وغشيتها رغبة لا سبيل الى مقاومتها ، في أن ترى أبويها اللذين كانت تحبهما دون الناس أجمعين - عدا « بول » - فأنفقت الليل كله تكتب اليهما ، وتدعوهما الى أن يعجلا بالمجيء ..



وحدد والداها اليوم العشرين من شهر مايو لوصولهما ، ولم يكن قد انصرم من الشهر سوى سبعة أيام . وظلت « جان » تترقب مرور الوقت بفارغ الصبر ، لا لأنها كانت تتوق لرؤيتهما فحسب ، وإنما لأنها كانت تشعر أيضا بالحاجة لأن تفتح قلبها لهما ، وأن تتحدث مرة أخرى مع قوم طيبين ، أشراف ، تخلو أعمالهم وأفكارهم ورغباتهم من الاثم . وكانت قد تعلمت أن تخفى أحاسيسها الحقيقية ، وأن تحيي الكوننة فى ابتسام ، بأسطة لها يديها . وأصبح الشعور الذى يداخلها هو شعور الوحدة ، والفراغ الكامل ، والاحتقار التام لجميع الرجال . وقد أخذ هذا الشعور فى الازدياد يوما بعد يوم ، حتى اذا تناهت اليها الاقاويل والشائعات التى راجت فى المنطقة عن سلوك زوجها ، امتلأت نفسها اشمئزا ! فلقد وضعت ابنة « كويار » طفلا ، ودبر لها زواج سريع . وكذلك كان حال خادمة أسرة « مارتن » ، وفتاة من الجيران فى الخامسة عشرة . وكذلك أرملة عرجاء فقيرة كانوا يلقبونها بـ « القذرة » لشدة قذارتها . وهكذا ، فى كل يوم كانت تتراعى الى « جان » شائعة جديدة عن جوليان ! وكان الربيع

المبكر ، الدافئ ، يثير الناس - على ما يبدو - كما يثير النبات . . . وأحسست « جان » - التى تحطم قلبها ، وتبلدت مشاعرها ، ولم تعد تملأ فطرتها العاطفية غير الاحلام - بأن هذه النزوات « الحيوانية » تضاعف اشمئزازها . . . ولئن كانت قد احتقرت « جيلبرت » ، فما كان هذا الاحتقار لانها سلبتها زوجها ، وانما لأن « السيدة الرفيعة » كانت تتقلب هى الاخرى فى الوحل ! . . . فهى لم تكن - كما يدل مظهرها - من ذلك الصنف من النساء اللاتى تملكهن الغرائز الوضيعة ، بل كانت ذات طابع مختلف . . . فكيف تردت اذن كما تردت أولئك الوضيعات الجاهلات ؟

وفى اليوم الذى كانت تترقب فيه والديها ، أضاف « جوليان » الى مشاعرها قدرا آخر من الاشمئزاز ، حين أنبأها ضاحكا - كأنما كان يتحدث عن شيء عادى - بأن الحياز سمع فى اليوم السابق ، ولم يكن من الأيام المخصصة لصنع الخبز ، ضجة داخل « القرن » ، فتوقع أن يجد فيها قطعة برية ، لكنه وجد بدلا من القطة ، زوجته . . . « ولم تكن تصنع خبزا ! » . . . واستطرد جوليان قائلا : « فبادر الحياز الى سد فتحة القرن ، حتى كاد العاشقان أن يختنقا . . . لولا ان ابن الحياز الصغير كان قد رآهما وأسرع ينبه الجيران ! . . . لكأنى بها احدى خرافات لافونتين ! »

★ ★ ★

♦ عندما وقفت العربة أمام الباب ، ورأت « جان » وجه ابنيها خلال النافذة ، أحسست بحب أبويها يجيش فى نفسها ، فى فورة لم تعرفها من قبل . . . على أنها لم تكذب ترى أمها حتى صدمت . . . وأوشكت أن تقع مغشيا عليها ! . . . كانت الأشهر الستة الاخيرة قد أضافت الى مظهر البارونة ماتفعلة عشر سنوات : كانت وجنتاها السمينتان المتهدلتان قد أصبحتا

محتقنتين .. وعيناها كئيبتين .. وأخذت تتنفس بعناء ، ولم تستطع أن تتحرك دون أن تجد من تعتمد عليه الى جانبها .. كان من العسير على « جان » أن تنظر اليها وهى فى هذه الحال ! .. ولم يكن البارون - الذى يعيش معها كل يوم ، والذى كان يرافقها دائما كظلها - قد لاحظ التغير الذى طرأ عليها ، فكان كلما شكت من تزايد ثقل جسمها ، أجابها : « ولكننى يا عزيزتى اعتدت أن أراك دائما هكذا ! »

وبعد أن رافقتها « جان » الى غرفتهما ، قصدت الى غرفتها الخاصة ، حيث غلبها التأثير فانخرطت فى البكاء .. ثم ذهبت الى أبيها وعيناها لا تزالان مبللتين بالدموع ، وقالت له : « اواه يا أبت .. لكم تغيرت أُمى ! .. ألا قل لى ماذا أصابها ؟ » .. فأجابها وقد تجلت عليه الدهشة : « اتظنين ذلك ؟ .. أعتقد انك مخطئة ! .. اننى لم افارقها قط ، ولست أرى أى تغير عراها .. فهى كما عهدتها دائما »

وفى تلك الليلة ، قال « جوليان » لزوجته : « ان امك تبدو فى أسوأ حال .. أعتقد انها جد مريضة »

وانفجرت « جان » باكية ، فقال : « حسبك ! .. ما قلت انها مقضى عليها .. أنك دائما تبالغين فى الامور .. كل ما هنالك انها تغيرت كثيرا ، وهى حال طبيعية لامرأة فى سنها .. »

واستطاعت « جان » أن تتغلب على مخاوفها بعد أسبوع ، حين ألقت مظهر أمها - ولعلها حاولت أن تطرد عنها ما ساورها من هواجس بصدد حالتها ، سيما وانها صارت لا تكاد تقوى على السير .. كانت تخرج للنزهة نصف ساعة كل يوم ، فاذا ما سارت الى نهاية « طريقها » ، طلبت اجلاسها على « مقعدها » .. وكانت لا تقوى أحيانا على بلوغ نهاية الطريق ، فتقف فى منتصفه قائلة : « لنقف هنا ، فلست أقوى اليوم على المضى .. »

وأصبحت نادرا ما تضحك ، مكتفية بالابتسام اذا ما جاء ذكر الاشياء التي كانت - في السنة السابقة - تجعلها تضح بالضحك . على ان بصرها ظل قويا ، ولعله كان الشيء الوحيد الذي بقى لها ، فكانت تقضى الايام تعيد قراءة قصة « كورين » أو « تأملات لامارتين » . وكثيرا ما كانت تطلب « صندوق ذكرياتها » فتفرغ في حجرها ما يحويه من خطابات قديمة ، عزيزة على قلبها ، ثم تعيدها واحدا اثر الآخر ، بعد أن تقرأها في صمت . . . وكانت اذا اطمأنت الى انها وحيدة - وحدة حقيقية - تطبع قبلة على بعض خطابات معينة منها ، في تكتم واجلال ، كما يفعل المرء بخصلة شعر تمت الى عزيزة أو عزيز . . . وكانت « جان » تفاجئ أمها أحيانا وهي تبكى بحرقة ، فتسألها : « ماذا بك يا أمي العزيزة ؟ » . . . فتتنهد البارونة في أسى عميق وتجيب : لقد أثرت في نفسي مخلفاتي المدخرة . . . استعدت ذكرى أشياء حميمة الى قلبي ، قد ولت وانقضت ! . . . انك قد تتذكرين اناسا أوشكوا أن يضيعوا في زوايا النسيان ، فتخالين انك تريهم وتسمعينهم ، فيؤثر هذا في نفسك أبلغ تأثير ! . . . ستعرفين فيما بعد هذا الشعور »

وعندما كان البارون يفد على غير انتظار فيشترك في هذه المواقف المؤثرة ، كان يقول : « صدقتي يا حبيبتي جان . . . أحرقي كل رسائلك . . . كل رسالة من رسائل أمك ، ورسائلي . . . فليس أدعى للحزن ، اذا ما تقدمت بك السن ، من ان تستعيدى ذكريات شبابك ! » . . . على ان « جان » ظلت تحتفظ بخطاباتها ، فرغم انها كانت تختلف عن أمها في كل شيء آخر ، الا انها اوتيت نفس طباعها العاطفية ، المرهفة ، الحاملة ، فكانت هي الاخرى تجمع لنفسها « صندوق ذكريات » !



ودعت بعض الاعمال البارون الى السفر ، فبدا على
البارونة تحسن كبير ، وأوشكت سعادة « جان » ان تكتمل
- بعد ان نسيت غدر « جيلبرت » ، وغراميات « جوليان » ! -
وكان الجو جميلا ، والحقول مليئة بالزهور ، والبحر بديعا ،
يلفه الهدوء والسكون ، ويتألق في بهاء تحت أشعة الشمس .

★ ★ ★

♦ وذات صباح ، حملت جان « بول » بين ذراعيها وسارت
في الحقول ، تتأمل ابنها برهة ، وتتأمل الزهور برهة أخرى
.. وشرعت تحلم بمستقبل ابنها .. ترى ماذا سيصبح ؟ ..
وتمنت لو يصبح عظيما ، لكنها في اللحظة التالية أثرت لو
يبقى نكرة مغمورا ، حتى يظل قريبا منها دائما ، وحتى يظل
أبدا محوطا بحنانها وحبها ! .. كانت تحبه بكل ما في قلب
الأم من أنانية .. تتمنى أن يظل ابنها ، ولا شيء أكثر من ذلك
.. بيد انها كانت في بعض الاحيان تحكم العقل فتأمل أن
يصبح رجلا عظيما ..

وجلست على الاعشاب لتتأمل منه ، وكأنها لم تره قط
قبل ذلك ! .. وأخذت تتصوره رجلا مكتمل النمو ، ذا لحية
مرسلة ، وخطوة رزينة ، وصوت جهورى .. وفيما كانت
غارقة في التفكير ، سمعت صوتا يناديها ، فالتفتت لترى
« ماريوس » يقبل مسرعا نحوها ، فظنت لفورها ان ضيوفا
جاءوا يزورونهم ، وساءها أن يقطعوا عليها أحلامها .. واذ
اقترب « ماريوس » منها وهو يجري بكل سرعته ، صاح :
« سيدتى .. ان البارونة جد مريضة »

وأحست « جان » ببرودة قاسية تسرى في جسدها ،
كأنها صب على ظهرها ماء مثلوج .. وهرعت نحو البيت بكل
ما وسعها من سرعة ، وهي مضطربة جزعة .. ورأت جمعا
من الناس يقفون تحت شجرة (الدلب) ، فلما بلغت مكانها ،

أفسحوا لها لترى أمها مسجاة على الأرض ورأسها مسند الى
وسائد ، ووجهها ملطخ بالسواد ، وعيناها مغلفتان ، وصدرها
ساكن لا يعلو ولا يهبط ! .. كانت المخلوقة ، التي ظلت
عشرين سنة لاهثة الانفاس ، هادئة الآن بلا حراك ! ..
وتناولت المربية « بول » من بين ذراعى أمه وانصرفت به ..
وصاحت « جان » متسائلة وقد تجلى على وجهها الجزع :
« ما الذى جرى ؟ .. كيف سقطت ؟ .. اسرعوا .. استدعوا
الطبيب ! » .. والتفتت فرأت القس وكان أحدهم قد بادر
الى دعوته فاقبل يسدى يد المساعدة .. وأخذ يدلك وجه
البارونة ويدها بالخل ، ولكن بلا جدوى .. فقال : « يجب
ان تنقل الى فراشها »



وكان « كويار » - المزارع - موجودا ، وكذلك الجودى « سيمون » والطاهية « لوديفين » ، فتعاونوا مع القس محاولين رفع البارونة ، لكن رأسها تدلى فى استرخاء ، وتمزق ثوبها تحت ثقلها .. وصرخت « جان » فى ذعر ، فأعادوا البارونة الى الأرض .. وجيء بعد ذلك بمقعد ذى مسندين من قاعة الجلوس ، فأجلسوا البارونة عليه ، وساروا بها وريدا الى الشرفة ، ثم صعدوا السلم ، حتى انتهوا بها الى غرفتها ، فطرحوها على سريرها .. وبينما كانت لوديفين تحاول جاهدة أن تنضو عن البارونة ثيابها ، ظهرت أرملة « دنتو » ، وقد أقبلت - كالقس - بطريقة غامضة .. « كأنهما يشمان للموت عبرا » ، كما قال الخدم !

وأسرع « جوزيف كويار » الى الطبيب يدعوه ، وفيما كان القس يهم بالذهاب لاحضار الزيوت المقدسة ، همست أرملة « دنتو » فى أذنه : « لا تتعب نفسك أيها الاب الموقر ، فلا نفع يرجى .. انها ميتة ! » .. فحدث القس نفسه وهو يطلب لها الفقران : « لاضير فى ذلك ، على أية حال ! »

وظلوا ساعتين يتأملون ذلك الجسد المحتقن الهامد من الحركة ، وهو ينتظرون مقدم الطبيب .. وبرح بجان الاسى والالام الجائح ، فركعت الى جوار السرير تبكى فى مرارة ..

وظهر الطبيب أخيرا ، فخيل اليها ان السلوى والامل يدخلان معه .. وشرحت له - بقدر ما استطاعت - ما نعى اليها عن الحادث ، قائلة : « كانت أمى فى نزعتها اليومية .. وكانت تشعر انها بخير .. فى خير حال ، حتى لقد تناولت فى الفطور بعض الحساء وبيضتين .. وفجأة ، سقطت ، وأخذ وجهها فى الاسوداد ، كما تراه الآن .. ولم تتحرك منذ تلك اللحظة .. لقد بذلنا كل ما فى وسعنا من جهد كى

تفريق .. دون جدوى .. » ، وأمسكت جان اذ لمحت أرملة « دنتو » تلوح بإشارات صريحة للطبيب ، وتحولت تساله في لهفة : « هل حالتها بالغة الخطورة ؟ .. أتظن حقا انها خطيرة ؟ »

وأجاب الطبيب أخيرا : « تشجعي يا سيدتي .. يؤسفني انها النهاية ! » .. فرفعت « جان » المسكينة ذراعيها ، ثم ارتمت على جثة أمها .. وأقبل « جوليان » في تلك اللحظة ، فبوغت وهو يلج الحجرة بالأمر ، بحيث لم يتمكن من ان يعد وجهه ومسلكه الاعداد الملائم ، بل بدا محنقا متضايقا ، لا تلوح على أساريره بادرة حزن .. وما لبث ان قال : « كنت أتوقع هذا .. كنت أدرك انها لن تعمر طويلا » .. وتناول منديله ، وتظاهر بأنه يجفف عينيه ، ورسم علامة الصليب على صدره في تقوى ، ثم ركع متمتما ببضع كلمات . وبعد دقائق نهض ، وحاول أن ينهض « جان » .. لكنه عجز ، اذ تشبثت بجسد أمها بين ذراعيها ، وراحت تغرقه بقبلاتها ، وتهمس اليه بأعذب كلمات الاعزاز والحب .. كانت تبدو كما لو كانت قد فقدت عقلها ، حتى لقد اضطروا لأن ينتزعوها من فوق الجثة انتزاعا !

وعندما عادت « جان » الى غرفة أمها بعد ساعة ، كانت قد فقدت كل أمل ، وتحول المكان الى مأتم .. فوقف جوليان والقس بقرب النافذة يتهامسان ، واستقرت أرملة « دنتو » في مقعد وثير وقد اطمأنت ، وبدأت كما لو كانت في بيتها فاستسلمت الى اغفاءة ، كما يفعل أولئك الذين يضطرون الى البقاء ساعات طويلا مستيقظين ..

★ ★ ★

♦ وأقبل المساء ، فسعى القس الى « جان » ، وأمسك بيدها بين راحتيه ، محاولا أن يسرى عنها .. همس لها بكلمات

العزاء المواسية ، وحدثها عن أمها بعبارات بارعة ، كساها بذلك الحزن الكاذب ، حزن أولئك الذين يجلب الموت لهم رزقا ! .. وعرض أن يسهر الليل يصلى بالقرب من الجثة ، لكن « جان » رفضت ودمعها مسترسل هتون ، فقد أرادت أن تبقى مع أمها وحدها .. لا يشاركهما فى خلوتهما أحد !

وقال جوليان : « هذا مستحيل .. سأمكث معك »

ولم تقو « جان » على النطق ، فأشارت برأسها أن « لا » .. وقالت أخيرا : « انها أمى .. فيجب أن أبقى وحيدة معها » وهمس الطبيب : « دعوها تفعل ما يطيع لها ، وستمكث الممرضة فى الغرفة المجاورة » .. ووافق القس وجوليان على رأى الطبيب فى اغتباط ، فقد كانا يهفوان الى سريريهما ! .. وركع القس مصليا ، لبضع دقائق ، ثم ترك الحجرة وهو يقول : « لقد كانت قديسة » .. قالها بعين اللهجة التى يقول بها عادة : « الرب معكم » !

واقترب جوليان من جان قائلا بصوته المعهود : « ألا ترغبين فى شىء ؟ »

ولم تفتن جان الى أنه كان يكلمها ، فلم تجب .. بينما تابع حديثه قائلا : « يحسن بك أن تأكل شيئا ، فلسوف يبعث الطعام فىك قوة »

لكن جان أجابته قائلة : « ارسل فى استدعاء أبى فورا » .. فخرج ليوفد رسولا الى « روان » ، بينما بقيت جان فى شبه ذهول ، ترتقب الساعة التى تخلو فيها الى نفسها لتطلق العنان لحزنها القانط .. وأخذت أرملة « دنتو » تجوس فى الحجرة تسوى الاشياء ، فى خطى غير مسموعة .. وأشعلت شمعة وضعتها على منضدة عند رأس السرير . لكن جان لم تر شيئا ، ولم يبد عليها أنها كانت تدرك شيئا .. لم يكن لها من هم سوى أن تكون وحيدة !

وعاد جوليان ، وقد فرغ لتوه من تناول عشاءه ، فسأل جان مرة أخرى : « هلا أكلت شيئا ؟ »

وهزت جان رأسها بالرفض ، فجلس وهو الى تكلف الرزانة أقرب منه الى الحزن الحقيقي ، ولم يفه بكلمة .. وكانت أرملة « دنتو » ماضية فى سباتها ، تغط من آن الى آخر ، فتستيقظ فجأة .. ونهض جوليان أخيرا ، فاقترب من جان قائلا : « هل تودين أن تبقى وحيدة تماما هنا ؟ »

فصافحته جان دون وعى أو انتباه وقالت : « أجل .. أتركوكنى » .. واذاك طبع على جبينها قبلة وغمغم : « سأتى لأطمئن عليك من وقت لآخر » ثم انصرف .. وخرجت أرملة « دنتو » هى الأخرى ، حاملة مقعدها معها الى الحجرة المجاورة

واذ غدت جان وحيدة ، بادرت فأغلقت الباب ، ثم فتحت النافذتين على مصاريعهما .. وسرى الى الغرفة عبر الحشائش ، فتسلل شذاها الى رئتيها .. وآلمها ان أحست له لذة ، وكأنها كان من السخرية أن تستمرىء الشذى والنسيم ، فعادت الى فراش المتوفاة ، وتناولت إحدى يديها فى يدها ، وأخذت تتأمل ملامحها .. لم تعد منتفخة متورمة .. ولاح كأنها تنام فى دعة .. بل لقد بدت تحت الضوء الشاحب المنعكس عن الشمعة ، كما لو كانت على قيد الحياة ، توشك أن تتحرك ! ومضت جان تتأملها فى نهم ، وقد عاودتها مواكب الذكريات .. تذكرت زيارات أمها لها فى مدرسة الدير ، وكيف كانت تقدم لها كيس الكعك .. وعشرات بل مئات من الوقائع ، والتفصيلات ، والكلمات ، والاشارات المألوفة .. كيف كانت تزوى ما بين عينيها اذا ضحكت .. وكيف كانت تتنهد وهى تجلس ، وأنفاسها تكاد تنقطع .. الخ

ووقفت تتأملها فى ذهول متبلد ، وهى تتكرر لنفسها : « لقد ماتت ! » .. وفجأة ، صدمتها الحقيقة المروعة ونبهت وعيها

.. كانت هذه الجثة هى أمها .. أمها العزيزة التى لن يقدر لها أن تتكلم ثانية أو تضحك أبدا .. لن تجلس بعد الآن الى المائدة مواجهة لآبيها ، ولن تقول بعد اليوم : « سعدت صباحا يا جانيت » .. ماتت ! .. ولسوف يضعونها فى صندوق يحكمون اغلاقه ، ثم يدفنونها تحت الثرى .. وبعد ذلك .. ينتهى كل شىء ، فلا تراها بعد ذلك قط ؟

أمحتمل هذا ؟ .. هل ستؤخذ أمها وتفصل عنها ؟ .. هذا الوجه الحبيب ، المألوف .. أول وجه رآته وأحبته فى حياتها هاهى العزيزة التى كانت أول من شغل قلبها .. لم تعد على قيد الحياة ! .. لم تبق لها سوى سويغات قلائل تتأمل فيها هذا الوجه الساكن وتملى بصرها منه ، ثم .. لايبقى منه غير ذكرى ! .. وانهارت راحة على ركبتيها ، وقد تملكها أسى مروع ، ودفنت وجهها فى الفراش ، وأخذت تعتصر يديها وهى تهتف معولة بصوت منبعث من أعماق قلبها : « آواه يا أماه ! .. يا أمى المسكينة ! »

.. وأحست جان بعقلها يكاد يختبل ، على غرار ماحدث ليلة أن انطلقت تعدو فى أحضان الجليد .. فنهضت الى النافذة تستنشق نسمة من الهواء النقى تسرى عنها .. وخفف سكون الليل الساجى وعيير الحشائش من حدة جواها هونا ما ، فأخذت تبكى فى خفوت .. وعادت فجلست على مقربة من السرير ، وتناولت احدى يدي أمها بين راحتيها مرة أخرى ، كما لو كانت البارونة « مريضة » فقط ! .. واجتذب الضوء حشرة كبيرة ، فراحت تحلق فى جو الحجرة جيئة وذهابا .. وراقبتها جان برهة ، ثم نسيت أمرها .. ومالبثت حركة بندول ساعة ، أن استرعت انتباهها ، مختلطة بصوت آخر لم تكد تتبينه .. كانت تلك ساعة أمها ، لاتزال دائرة ، وهى مثبتة فى ثوبها الذى ألقى فى أهمال على مقعد عندطرف السرير

.. وأذكت علاقة أمها بهذه الساعة الصغيرة - التي لم تكف عن الدوران - من وقدة حزنها .. وتعرفت على الوقت، فإذا الساعة لم تتجاوز النصف بعد العاشرة .. واذ فكرت في أنها ستقضى الليل بطوله في تلك الغرفة ، تملكها الذعر !

ولم تلبث أفكارها أن اتجهت الى أمور وذكريات أخرى في حياتها : روزالى ، وجيلبيرت ، وألوان الحداع والغدر المريعة .. أليس في حياتها سوى التعاسة ، والحزن ، والموت ؟ .. كل شيء كان غدرا ، وزيفا ، وألما ، ودموعا ! .. ترى أين تجد السلام والسعادة ؟ .. لعلها تجدهما في عالم آخر ، اذا ماتخلصت روحها من شواغلها الدنيوية .. الروح ! .. وفكرت في هذا السر الغامض الذى لا قرار له ! .. أين ذهبت روح ذلك الجسد البارد الجامد ؟ .. أين ذهبت روح أمها ؟ .. لعلها رحلت بعيدا ، وبعيدا جدا ، الى مكان مجهول .. ولكن، أين ؟ .. ربما كانت جد قريبة منها .. لعلها فى هذه الحجرة تحوم حول الجسد الساكن المسجى على الفراش .. وفجأة ، خيل لجان أنها سمعت تردد أنفاس غامضة ، وكان روحا تحوم حولها ، فاستولى عليها الذعر .. وبلغ من فزعها ان لم تعد تقوى على الحركة ، أو التنفس ، أو الالتفات خلفها .. وراح قلبها يخفق فى عنف وسرعة ..

وفجأة ، عاودت الحشرة تحويمها الجنونى فى الحجرة ، فكاد الخوف يزهق أنفاس جان ، لكنها سرعان ما اطمأنت اذ عرفت مصدر الصوت ، فنهضت وتلفتت حولها ، واذا بصرها يقع على مكتب أمها .. وسيطرت عليها فكرة غريبة ، منبعثة عن فيض العاطفة .. تلك هى أن تطلع على الخطابات القديمة التى كانت عزيزة على قلب أمها ، وأن تقرأها كما لو كانت تقرأ كتابا مقدسا .. وبذلك تؤدى واجبا قدسيا ، صادرا عن وفاء

بنوى يرضى أمها فى العالم الآخر .. فقد كانت الخطابات
تضم رسائل جديها التى لم تطلع أبدا عليها ..

ونفضت الى المكتب ففتحته .. ومن الدرج الأسفل -
« صندوق الذكريات » - تناولت عدة لفافات من الورق
المصفر الحائل اللون ، ربطت فى عناية .. وفى فيض من
الاحاسيس المرهفة ، وضعتها جميعا على السرير .. على جسد
أمها .. وشرعت تقرأها .. كان الاول موجها الى « حبيبتي » ،
والثانى الى « صغيرتى العزيزة » ، وثالث الى « طفلى العزيزة »
وآخر الى « فتاتى الحبيبة » ، وغيره الى « عزيزتى أدليد » ،
وهكذا .. وكانت كلها مفعمة بالحنان الجياش ، حاشدة بألف
جزئية صغيرة من التفاصيل التى لا يفقه لها الغريب قيمة :
« لقد أصيب أبوك بالانفلوزا .. وأحرق « هورتنس » نفسها
.. وماتت القطعة « كروكيرا » .. وفقدت ماما كتاب صلواتها
أثناء عودتها من الكنيسة ، وهى تظن أنه سرق منها .. كذلك
كانت الرسائل حافلة بذكر اناس لم تكن جان تعرفهم ، وان
ذكرت انها سمعت فى طفولتها اسماءهم ..

وكان لهذه التفاصيل أبلغ الاثر فى نفس جان ، اذ انتقلت
فجأة الى غمار حياة أمها الماضية .. الى أعماق أغوار قلبها ..
وأخذت تقرأ الخطابات بصوت مرتفع وكأنها تسلى أمها الميتة
وتسرى عنها ! .. ثم راحت ترتبها واحدا فوق الآخر ، عند
طرف السرير ، بعد الانتهاء من تلاوة كل منها مباشرة ، وهى
تقول لنفسها : « سوف أضع هذه الرسائل فى تابوت أمى كما لو
كانت زهورا » .

وفضت لفافة ثانية .. كانت مكتوبة بخط يختلف عما
كتبت به الاولى .. ومضت تقرأ : « لا أستطيع العيش بدون
حبك .. اننى أحبك الى درجة الجنون » .. ولم يكن ثمة توقيع
تستطيع جان أن تتلمس فيه ايضاحا ، فلم تفقه للرسالة معنى

٠٠ وقلبت الورقة بين يديها ، فاذا على وجهها الآخر عنوان :
 « البارونة دي بيرتيوس دي فود » ٠٠ وفضت رسالة أخرى ،
 فقرأت فيها : « تعالى الليلة بمجرد خروجه ٠٠ سنحظى بساعة
 هائلة ٠٠ انى أعبدك » ٠٠ وفي خطاب آخر : « قضيت ليلة
 محمومة ، لكم أتوق اليك ! ٠٠ كنت أتمثلك بين ذراعى ،
 وشفتك على شفتى ٠٠ ثم أوشكت أن أقفز من النافذة ، اذ
 فكرت فى انك كنت فى تلك الساعة تضطجعين الى جواره ٠٠ »
 ٠٠ وحارت جان وارتبكت ٠٠ لمن كانت كلمات الهوى هذه
 موجهة ؟ ٠٠ وعمن كانت الرسائل تتحدث ؟

واستأنفت القراءة ٠٠ كانت اللهجة نفسها ٠٠ نفس أهازيج
 الهوى المستعرة ، تنتهى بتوصيات بالتزام الحذر ، وفى ختامها
 دائما هذه الكلمات : « احرصى على أن تحرقى هذا الخطاب » ٠٠
 وانتهت « جان » أخيرا الى قصاصة عادية تضمنت وعدا بتلبية
 دعوة للعشاء ٠٠ وكانت بنفس الخط ، ومذيلة بتوقيع « بول
 دينمار » ٠٠ الشخص عينه الذى كان البارون يدعو « صديقى
 الحميم بول » ، والذى كانت زوجته خير صديقات البارونة !

وفجأة ، تسلل الى ذهن « جان » الشك ، وسرعان ما تحول
 الى يقين ٠٠ لقد كان هذا الرجل عشيق أمها ! ٠٠ وقفزت واقفة
 على قدميها ، وألقت الخطابات الغرامية من يدها وكأنها تجفل
 من أفعى ، وانخرطت فى بكاء مرير ٠٠ وما لبثت أن استسلمت
 للقنوط الطاغى ، فتهافت على الارض جامدة الاطراف ، ومضت
 تبكى فى حرقة وهى تخفى وجهها فى راحتيها ، حتى لا يسمع
 أحد شهقاتها ٠٠

وكان من المحتمل أن تبقى على حالها هذه طيلة الليل ، لولا
 أن سمعت وقع خطوات فى الغرفة المجاورة ، وتنبهت الى أنه
 من المحتمل أن تكون هذه الخطوات لأبيها ٠٠ ففكرت فورا فى
 الخطابات المتناثرة على السرير والارض ٠٠ لم يكن يعوزه سوى



أن يقرأ خطابا واحدا ، فيفهم كل شيء ! .. وبادرت بجمع الخطابات كلها : خطابات جديها ، وخطابات العاشق ، والخطابات التي لم تطلع بعد عليها ، وتلك التي ما زالت محوطة بالاشربة .. وألقته جميعا فى المدفأة ، ثم تناولت الشمعة ، فاوقدت النار فيها ! .. ولما لم تبق سوى حفنة من الرماد ، عادت الى مقعدها بجوار النافذة ، دون أن تجرؤ على الاقتراب من أمها وأخفت وجهها فى راحتها ، وأخذت تئن متوجعة : « أواه ، يا أمى المسكينة .. يا أمى البائسة ! »

واذ ذاك خامرتها فكرة قاسية .. لو فرض أن أمها لم تكن ميتة .. لو أنها كانت نائمة فقط ، ولن تلبث أن تستيقظ ، أو لا تؤثر معرفة السر الرهيب فى حبها لجان ! .. هل تقوى على أن تقبلها بنفس الوفاء السابق ، وببنفس المحبة القدسية السابقة ؟ .. مستحيل .. وأفعمت الفكرة نفسها بالالم المشبوب !

* * *

♦ **واكتهل الليل** ، فأوشكت النجوم أن تختفى ، وأخذ القمر يسرع في التوارى خلف البحر .. وارتد بال جان الى تلك الليلة التي وصلت فيها الى ضيعة أشجار « الحور » بعد أن خلفت مدرسة الدير .. لقد جلست أمام النافذة طوال تلك الليلة ، ولكن في ظروف مختلفة .. ما أشد التغير الذي طرأ على كل شيء ! .. وما أكثر أوجه التباين بين ما أصبحت عليه ، وذلك المستقبل الذي تراءى لها ليلتذاك !

وأقبل النهار .. نهار مشرق جميل .. وعجبت جان في نفسها : كيف تخلو هذه الارض من البهجة والسلام وفيها مثل هذا الفجر الوضاء ! .. وأجفلت اذ سمعت صرير الباب .. وإذا جوليان هو القادم .. وسألها : « أمتعبة أنت ؟ »

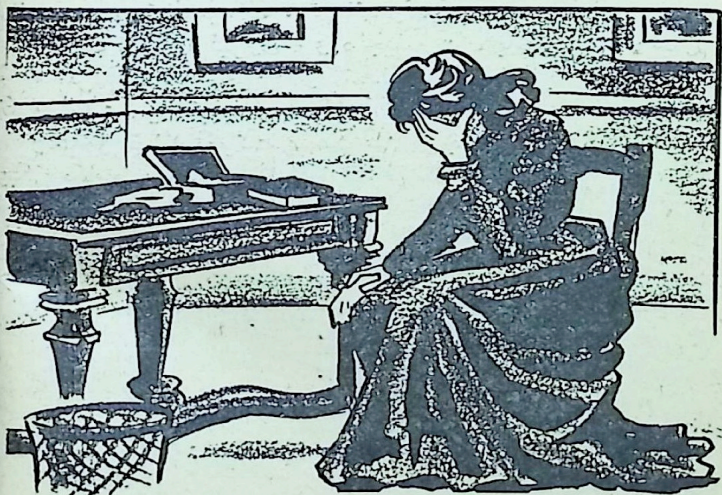
فأجابت وهي تشعر بشيء من الارتياح لرؤيته : « لا » .
قال : « خليك بك أن تنصرفي لتنالي قسطا من الراحة » .
فقبلت جان أمها في تمهل وحزن ، ثم انصرفت الى غرفتها .
ووصل البارون في مساء ذلك اليوم ، فانخرط في بكاء اليم .. وتقرر أن تشيع الجنازة في اليوم التالي .

وعند ما قبلت جان جبين أمها للمرة الاخيرة ، وراتهم يثبتون غطاء التابوت فوق جسدها ، تنحت جانبا ، لتستقبل الزائرين الذين بدأوا يفدون .. وكانت « جيلبيرت » أولاهم ، فطوقت جان بذراعيها ، وقبلتها وهي تبكي بحرقة .. وأقبلت نسوة في ثياب الحداد ، لم تعرفهن جان .. وقبلتها كل من المركيزة « دي كوتلييه » وفيكونتة « دي بريزفيل » .. وفجأة ، رأت الحالة ليزون تدنو منها ، فضمتهما جان الى صدرها ، في حرارة كادت تفقد العذراء العجوز رشدها !

وأقبل جوليان في ثياب الحداد الكاملة ، فبدا وسيم الطلعة .. وهمس في أذن زوجته يستشيرها في بعض الامور ، ثم

أضاف : « كل علىة القوم هنا .. ستكون الجنازة رائعة ! » ..
وانحنى محييا السيدات ، ثم انصرف
وبقيت الحالة « ليزون » و « جيلبرت » بالقرب من « جان »
أثناء المراسم الدينية .. وكانت الكوننة تقبلها باستمرار وهي
تكرر لها : « يا حبيبتي المسكينة ! »
وعندما أقبل الكونت يبحث عن زوجته لينصرفا معا ، كان
يبكي بكاء مريرا ، كما لو كان قد فقد أمه !





الفصل العاشر

♦ كانت الأيام التالية كثيبة حقا ، فقد بدا البيت خاويا لغياب الحبيبة التي أسلمت الى مضجعها الاخير . وكان مرأى الاشياء التي كانت تستعملها في حياتها ، يثقل على قلوب أولئك الذين بقوا بعدها . . . ففي الردهة ، كان الكوب الذي نسيت الخادم أن ترفعه ، ومقعدها ، ومظلتها ، تذكر كلها بها . . . وفي كل غرفة كانوا يجدون أشياء خلفتها وراءها : مقصها ، وأحد قفازيها ، وكتاب بليت صفحاته من كثرة قراءته ، وعدد من الاشياء الصغيرة الاخرى التي اكتسبت معنى أليما لأنها كانت

تبعث فى النفوس ذكرى الكثير من عاداتها .. بل لقد كان صوتها أيضا يلاحقهم ، فكانوا يتوهمون أنهم يسمعون .. وما كانوا ليحجموا عن أن يلجأوا الى أى مكان ، فرارا من الذكريات الموجهة التى كانت تثيرها هذه الاشياء فى نفوسهم ..

وكانت « جان » - الى كل هذا - قد تحطمت نفسها تحت وطأة اكتشافها لسر أمها .. كان التفكير فى هذا السر يرهق ذهنها .. وأبى جرح قلبها المثلوم أن يندمل .. واشتدت وحدتها وحشة ، بعد معرفة هذا السر الرهيب ، اذ تلاشت البقية الباقية من الثقة والايمان من نفسها !

وسافر البارون فترة من الوقت ، بعد اذ شعر بحاجة ماسة الى تغيير الجو والمناظر ، وراوده الامل فى أن ينفص عنه الهموم التى كانت تتراكم على كاهله يوما بعد يوم .. ومضت حياة البيت الكبير - الذى فارقه رباه ، واحد بعد الآخر - فى هدوء رتيب ..

وما لبث الطفل « بول » أن أصيب بمرض ، فكادت « جان » أن تجن لفرط لهفتها وقلقها ، وظلت الى جوار فراشه عشرين ليلة ، قلما ذاقت خلالها طعاما ! .. وقدر له أن يبرأ ، لكنها ظلت مع ذلك واجفة لمجرد التفكير فى أنها كادت تفقده .. فماذا كانت تراها فاعلة لو قدر لها ذلك ؟ .. ما الذى كان يصيبها ؟ .. ومن ثم تسلل الى نفسها حنين الى أن يكون لها طفل آخر .. وأثار الحاطر حلمها القديم فى أن ترى لنفسها طفلين يلعبان حولها : ولدا وبنتا .. فتحول الحلم الى رغبة جامحة أخذت تسيطر عليها تدريجا .

لكنها كانت - منذ حادث روزالى - تعيش بمعزل عن جوليان ، وكان يبدو من المستحيل السعى الى توحيد حياتهما الخاصة من جديد فى الظروف الراهنة .. سيما وقد اشتبك زوجها فى

علاقة أخرى ، ما كان لديها أدنى شك في وجودها ! .. وهكذا كانت كلما فكرت في أن تصلح ذات البين بينها وبينه ، ازدادت تقززا واستنكارا !

ومع ذلك ، فقد كانت على استعداد ، لأن تغالب اشمئزازها في سبيل تحقيق رغبتها في أن تنجب طفلا .. بيد أنها لم تجد حيلة تنذرع بها للصالح .. وكانت تؤثر أن تموت ، على أن تدع زوجها يدرك نيتها ، فقد وضح من مسلكه أنه لم يعد يكثر بها !

ولعلها كانت قادرة على أن تطرح عنها هذه الرغبة المستبدة لولا أنها أمست ترى في أحلامها كل ليلة ، طفلة صغيرة تلعب مع « بول » تحت شجرة الدلب ، فكانت في بعض الأحيان تحس حافزا لا سبيل الى مقاومتها ، يدفعها الى أن تنهض لتنشد زوجها ، دون أن تنبس ببنت شفة ! ولقد تسلفت بالفعل مرتين حتى بلغت مخدعه ، لكنها كانت تمسك نفسها عن أن تدبر أكرة الباب ، فتكر عائدة ، وقد غشيها شعور غالب من حياء !

♦ وكان البارون لا يزال على سفر ، وأمها ميتة ، وليس ثمة من تستشير .. أو من تقضى اليه بأسرارها الدفينة .. ومن ثم حزمت أمرها على أن تلجأ الى الاب « بيكو » ، فتقضى اليه - تحت ستار الاعتراف - بالخطط والافكار التي كانت تتناهب خاطرها . وألفته في حديقته الصغيرة ، التي تنبت فيها أشجار الفاكهة ، وقد انصرف الى ترديد صلواته .. وبعد تبادل العبارات العادية التي يتطلبها الموقف ، قالت متلعثمة متضرجة الوجه : « انما جئت يا سيدي القس كي أعترف .. »

فتطلع اليها القس في دهشة ، وأصلح من وضع منظاريه ليتفرس فيها متفحصا ، ثم ضحك قائلا : « لا أكاد أعتقد أن ثمة

خطايا باهظة تثقل ضميرك ! » .. واستطاعت رغم حيرتها
البالغة أن تجيب : « لا .. ليس هذا ما عنيته بالضبط .. وإنما
جئت أبتغي نصحك فى أمر .. أمر دقيق بالغ الحرج ، لا أستطيع
أن أتحدث فيه .. بصراحة ! »

وحينئذ ، تخلى الاب بيكو عن مسلكه الرقيق ومجاملاته ،
واسترد مظهره الدينى ، ثم قال : « حسنا يا طفلى .. سأنصت
لحديثك على أنه اعتراف ، فتعالى الى الكنيسة .. »

بيد أن جان أحست فجأة أنها لا تكاد تستطيع أن تخوض
فى مثل هذه المسائل المخجلة فى الهيكل المقدس الخالى ، فأمسكت
ذراعه تجتذبه قائلة : « لا ياسيدى الاسقف .. اذا .. اذا لم
تر بأسا ، فاننى .. أؤثر أن أحدثك هنا عما جئت من أجله ..
نستطيع أن نقصد الى الحميلة فنجلس تحتها .. »

وسارا على مهل الى الحميلة الصغيرة فجلسا تحتها ، و « جان »
تحاول أن تجد كلمات تمهد بها لموضوعها .. وأخيرا شرعت
تقول ، كما لو كانت تعترف بخطايا وذنوب : « أبت ! » .. ثم
ترددت ، وما لبثت أن عادت تكرر : « أبت ! » .. وتوقفت
يغالبا الارتباك .. وطوى القس يديه منتظرا .. وبعد برهة ،
قال يشجعها وقد لمس مدى حيرتها : « وبعد يا طفلى .. يبدو
أنك خائفة ! .. هيا اطلقى لسانك ! »

وأخيرا ، استجمعت قدرا كافيا من جرأتها - كجبان انتابته
نوبة من الشجاعة - وقالت متلعثمة ، متعجلة : « أبت ، اننى
أبغى .. طفلا آخر ! »

ولم يحرج جوابا ، اذ لم يفقه تماما قولها .. ولاحظت من
ناحيتها هذا ، فشأت أن تزيد قولها وضوحا ، واستأنفت قائلة
فى ارتباك وعناء : « انك تدرك أننى أصبحت وحيدة فى الدنيا
.. فأبى وزوجى لا يتفقان .. وأمى قد ماتت ، و .. » .. ثم

صارت ألفاظها غير واضحة المخارج وهى تمضى قائلة : « ومنذ أيام ، كدت أفقد ابني ! .. فماذا كان يصيبني اذ ذاك ؟ » فتأملها القس بنظرة مذهولة ، ثم قال : « حسنا .. امضى الى هدفك »

فرددت القول : « أريد طفلا آخر ! » وابتسم القس ، وهو الذى اعتاد سماع حماقات الفلاحين الذين لا يحفلون بما يقولون فى حضرته .. ثم أجاب وهو يهز رأسه فى حركة الحبير العالم : « حسنا .. الامر فى يدك » فرفعت نحوه عينين صريحتين ، وقالت متلعثمة : « أجل .. ولكنك تعرف .. منذ الحادث .. حادث الخادم .. نعيش .. زوجى وأنا .. منفصلين »

وبهت القس لهذا الاعتراف ، وهو الذى يعلم مدى تسامح أهل الريف ، فيما يتعلق بمبادئ الاخلاق والادب ! .. وفجأة ، خيل اليه أنه قد حدس ما فى نفس الزوجة الشابة من رغبة حقيقية ، فاشاح بوجهه وقد فاض عطفه واشفاقه عليها لحيرتها وأساها ، وقال : « أجل ، فهمت ، فهمت .. من الطبيعى حقا أن يكون « ترمك » هذا بغيضا الى نفسك ، قاسيا عليها ، فأنت شابة ، موفورة الصحة .. هذا طبيعى للغاية .. »

وتجلت طبيعة قس الريف المتسامحة فى ابتسامه جديدة .. ثم ربت على يدها فى لطف وهو يستأنف الحديث : « انه أمر مباح أيضا .. هكذا تقول الوصايا .. ألسنت متزوجة ؟ .. حسنا ، انك لست متزوجة لتزرعى البطاطس .. أليس كذلك ؟ » ولم تستوعب فى بادىء الامر كلماته المتدفقة ، بيد أن معانيها لم تكد تشرق فى ذهنها ، حتى احتقن وجهها ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهتفت : « أواه ، يا سيدى القس ! .. ما الذى ترمى اليه ؟ .. ماذا يجول بخاطرك ؟ .. أواه ، اننى أقسم لك .. »

وخبست العبرات صوتها ، فاشتدت دهشة القس ، وحاول أن يسرى عنها بقوله : « آه ، حسبك ! .. ما أردت أن أخرج مشاعرك ، وانما كنت أمزح كما تعلمين .. ان تجمل المرأة بالفضيلة لا يكون دون ثمن أو أعباء ، ولكن ، اعتمدنى على .. اعتمدى على كل الاعتماد ، وسأقابل السيد جوليان بهذا الصدد »

★ ★ ★

♦ **وهر أسبوع ، وجان تعيش فى شبه حمى من القلق** . وذات مساء ، رمقها جوليان - أثناء العشاء - بنظرة ذات معنى خاص ، وعلى فمه الامارات التى تظهر عليه حين يأنس من مزاجه ميلا الى الغزل . بل لقد أخذ يعاملها فى رقة ساخنة بعض الشئ .. وعندما كانا يتمشيان فى طريق البارونة بعد العشاء ، مال عليها وهمس فى أذنها : « اذن فقد تصالحنا .. أليس كذلك ؟ »

ولم تحر جوابا ، بل انهمكت فى تأمل خط مستقيم على أديم الارض ، لا يكاد يبين نظرا لنمو الحشائش فوقه .. وكان ذلك الخط أثرا باقيا من قدم أمها ، كأنه الذكرى الواهنة .. ومضى زوجها فى غير استحياء : « ما أكثر ابتهاجى بهذا .. انما كنت خائفا من أن لا أدخل السرور على نفسك ! »

وكانت الشمس قد غربت وراء الاشجار ، وشاعت البرودة فى هواء الليل المبكر .. وأحسست جان برغبة فى البكاء ، وفى أن تطوق بذراعيها أحدا ، وان تسكب أشجانها فى أذن تصفى اليها فى عطف حنون .. وأفلتت منها شهقة باكية ، فبسطت ذراعيها وارتمت فوق صدر زوجها .. وأخذت تبكى وتنتحب ، وهو يحملق فيها مندهشا ، لا يكاد يتبين وجهها الذى أخفته فى ثنايا سترته . لم يكن يرى غير شعرها الغزير المتموج .. وخيل اليه أنها لا تزال تهواه ، فأخذ يقبل شعرها ملاطفا . وعادا الى الدار دون أن ينبسا بكلمة .. ثم رافقها الى مخدعها .

واستأنفا ما انقطع من صلاتهما .. وكان جوليان يقوم بدوره في شعور من يؤدي واجبا ليس بالبغض .. وكانت هي تنصاع لما كانت تعتبره ضرورة مؤلمة ، مثيرة للاشمئزاز ، وهي تضم في نفسها أن تقطع كل اتصال بزوجها الى الابد ، بعد أن تحس ببوادر الحمل مباشرة !

على أنها سرعان ما تبينت تغيرا في مسلك جوليان أثناء خلوتهما ، اذ لم يعد يتصرف بذلك الاطمئنان الذي يطبع مسلك الأزواج ، وانما كان يلتزم حرص « العاشق » ! .. وأدهشها ذلك ، فقررت أن تكون متيقظة .. واستطاعت أخيرا أن تتبين أنه كان يقطع اتصالهما قبل أن يبلغ نهايته الطبيعية ! وهمست له ذات مرة وشففتها على شفتيه : « لماذا أراك على غير ما اعتدت أن تكون ؟ »

فأجابها في ابتسامة ساخرة : « لأنني لا أريد أطفالا آخرين ! » فتساءلت مأخوذة : « ولم لا ؟ » .. واذا ذاك أجابها والدهشة تكاد تعقل لسانه : « ماذا ؟ هل جنت ؟ أأكون لنا طفل آخر ؟ .. لا ! .. ألا يكفي واحد لقلب نظام البيت رأسا على عقب ، وزيادة النفقات ؟ .. طفل ؟ ! لا ، شكرا لك ! »

ولكنها طوقت عنقه وراحت تضرع اليه وهي تقبله : « أواه ، يا جوليان ! .. أرجوك .. ليكن لنا طفل آخر ! » فاحتدم غضبه ، كما لو كانت قد جرحته بضراعتها ، وقال : « لا ينبغي أن تفقدي صوابك يا جان .. دعيني من نزواتك الحمقاء ! »

وصمتت ، لكنها عزمّت في نفسها على أن تلجأ الى الحيلة لجباره على أن يتيح لها ما تتوق اليه من سعادة .. ومن ثم اطالت من قبلاتهما ، وتظاهرت بالوجد العارم ، واستعانت بكل وسيلة ودهاء ، ومع ذلك فقد ذهبت محاولاتها أدراج الرياح ، لانه كان مسيطرا تمام السيطرة على نفسه ..

* * *

♦ واذا رأت جان عدم جدوى جهودها ، وبدأت خيبة أملها في أن ترزق بطفلة تدفعها الى اليأس ، قررت أن تواجه كل الاحتمالات ، وأن تركب كل الاخطار .. فعادت الى «الاب بيكو» .. وكان قد فرغ من تناول افطاره ، واحتقن وجهه لما كان يعانيه من اضطراب في القلب بعد الوجبات .. فما أن رأى جان حتى هتف بها : « هيه .. ماذا تم ؟ » .. فقد كان مشوقا الى معرفة نتيجة وساطته !

وبادرت تجيبه دون أن يعتريها شيء من خجلها السابق وترددها : « ان زوجي لا يريد طفلا آخر ! »



واشتد انتباه القس ، فالتفت اليها وقد استعد لأن يفوض
في تلك المعميات الزوجية التي كانت كثيرا ما تضي على
« الاعترافات » جوا يلذ له ، وتساءل : « وكيف كان ذلك ؟ »

ولم تتمالك أن تشعر بمضض وخرج على الرغم مما كانت
قد عقدت عليه العزم ، فقالت : « انه .. انه يرفض أن يدعني
أحمل »

وفهم القس ، اذ كان على دراية بهذه الامور . ومع ذلك فقد
أخذ يمتطرها بالاسئلة ، وفكر مليا ، ثم قال في صوت هادئ ،
وكانه يتحدث عن محصول الارض المرتقب ، ويرسم خطة واضحة
دقيقة تتبع لضمان الحصول عليه : « لم تبق غير وسيلة
واحدة يا ابنتي .. دعيه يعتقد بأنك حامل ، فاذا ذاك يتخلى
عن حذره ! »

وتضرج وجهها حتى منابت الشعر من رأسها ، لكنها سرعان
ما تماكنت جأشها ، وتخلصت من كل حرج ، فسأته في الحاح :
« واذا لم يصدقني ! »

فقال القس الخبير بطباع الرجال : « أنبئي كل امرئ بالخبر ،
فلا يلبث زوجك بعد فترة أن يصدقك » .. ولكي يبرر رجل
الدين جنوحه الى مثل هذه السياسة ، استدرك قائلا : « ان
من حقك أن تنهجي هذا السبيل ، لأن الكنيسة لا تتسامح ازاء
هذه العلاقات ، الا من أجل التناسل والتكاثر ! »

واتبعت جان نصيحته البارعة .. فأنبأت جوليان ، بعد
أسبوعين ، بأنها ترجح أنها قد حملت .. فأجفل مأخوذا ، ثم
هتف : « هذا غير ممكن ! »

ولكنها أصرت ، وأنباته بما يدعوها الى هذا الظن . بيد أنه
لم يجب بغير هذه الكلمات : « واه لك ! .. أنتظري فترة ،
وسوف نرى »

وأخذ يسألها كل يوم : « هيه ؟ » ، فكانت تجيبه دائما بقولها : « لا ، لم أتبين بعد .. لسوف أدهش حقا اذا لم أكن حبي .. فكان يزفر فى انفعال ، ويبدى الدهشة ، ويأبى أن يصدق ، ثم يمضى مرددا : « لست أفهم .. لست أدري كيف حدث هذا .. انه مستحيل ! »

وبعد شهر ، أو حوالى الشهر ، أنبأت كل من تعرفه بالامر ، اللهم الا الكونتة « جيلبرت » ، اذ صدها عن اخطارها حياء غامض ، رقيق .. وكان جوليان قد انقطع عن ارتياد مخدع زوجته منذ أنبأته نبأ الحمل ، لكنه لم يلبث أن ارتضى - بعد فترة - الواقع الذى لا مفر منه . ومع انه قال ساخطا : « هاهو ذا طفل يفد دون رغبة فيه ! » ، فانه لم يلبث أن جدد علاقته مع جان . وحدث ماتوقعه القس .. وحملت !

واذ ذاك ، وفى نشوة الفرح ، أوصدت بابها دون جوليان الى الأبد ! وفى غمرة من الاعتراف بالجميل للقوة المقدسة الفامضة التى كانت تؤمن بها ، أقسمت منذ ذاك الحين أن تظل عفيفة ، طاهرة ، مدى الحياة !

وغدت سعيدة هائلة ، حتى لقد أدهشها ما أصاب حزنها لموت أمها من خبو سريع ! .. لقد ظنت انها لن تجد ما يجعلها تسلو هذا الحزن ، فاذا الجرح قد اندمل ولما يتصرم شهران .. ولم يبق سوى أسى واهن ، كقناع شفاف نشر على حياتها . وأصبحت تعتقد ان لن تؤذيها بعد اليوم أحداث أخرى ، فسوف يكبر ولداها ويغمرانها بالحب ، وسوف تقضى شيخوختها فى دعة ، دون أن تولى زوجها لحظة من تفكيرها !

★ ★ ★

♦ وحوالى نهاية سبتمبر ، أقبل الأب بيكو فى ثوب كهنوتى جديد ، ليقدم خليفته الأب « تولبياك » ، وكان شابا

صغير السن ، وقور المظهر ، تنم عيناه الغائرتان ، المحوطتان بهالات عميقة ، عن شخصية قوية عنيقة . . .
 وكان القس المسن قد اختير اسقفا لـ (جودرفيل)، فأحست جان بحزن صادق لفراقه ، اذ كان وجهه يخالط كل احداث شبابها . . . فهو الذى عقد قرانها ، وهو الذى عمد ابنها ، ووارى أمها التراب . . . بحيث ما كانت لتستطيع أن تتصور الضاحية (ايتوفان) بدون وجهه السمج ، وهو يتنقل من مزرعة الى أخرى . . . كانت تحب القس الشيخ لانه كان طيبا ، بسيط النفس . . .

غير انه لم يكن يبدو سعيدا رغم الترقية التى نالها ، حتى لقد قال لها : « يشق على جدا فى الواقع ياسيدتى الكونتة أن أرحل . . . فقد قضيت هنا السنوات الثماني عشرة الماضية . ان « الابرشية » فقيرة ، لاتدر رزقا كثيرا ، ورجالها ليسوا متمسكين بمبادئ الدين ، ونساءها هواثيات ، رعناوات . . . فلا تأتى الفتيات الى لازوجهن الا بعد أن يكن قد وقعن فى المحذور ! - اذ ليس لزهور العفة هنا ثمن يذكر - ومع ذلك ، فقد كنت سعيدا »

فاحمر وجه القس الجديد لدى سماعه هذا القول ، وأبدى تبرمه . . . ثم قال فجأة : « لا بد من أن يتغير كل هذا ! » . . . وكان الاخير يبدو كطفل عنيد ، نحिला ، ضعيفا ، فى ثوب الكهنوت الذى بدا نظيفا رغم قدمه . . . ورمقه الائب بىكو من طرف عينه - وهى عادة درج عليها ، سيما حين تتملكه الرغبة فى السخرية - ثم قال : « لكى تمنع هذا أيها الاسقف ، يجب أن تحكم القيود على قطيعك ، ومع ذلك ، فلن يساعدك هذا كثيرا »

فأجاب القس الشاب فى لهجة حادة : « حسنا . . . سوف خرى » . . . فابتسم الاسقف الشيخ وتناول قبضة من السعوط ،

ثم قال : « لسوف تنضجك السن أيها الاسقف .. والتجارب كذلك . ولن تجديك خطتك الا فى اقضاء المتقين عن الكنيسة .. هذا جل مافى الأمر . ان الفلاحين فى هذه الاصقاع متدينون ، ولكنهم عنيدون ، فحذار .. ولتعلم اننى حين ارى قتاة منتفخة البطن تأتى للاستماع لمواعظى ، لا أملك سوى أن أقول لنفسى : « انها تجلب رعية جديدة للأبرشية » .. ثم أسعى لأن أزوجهها .. انك لا تملك أن تصدهم عن الرعونة والطيش ، ولكنك تستطيع أن تذهب الى الرجل وتعمل على أن لايهجر أم الجنين .. زوجهم أيها الاسقف .. زوجهم ولا تحملهما بعد ذلك ! »

فأجاب القس الجديد فى حدة : « نحن على خلاف فى رأى ، فلا جدوى من الاستمرار فى الجدل »

ومن ثم شرع الأب بيكو يندب من جديد حرمانه من القرية ، والمحيط الذى يطل عليه من نوافذ بيته الملحق بالكنيسة ، والوديان المخروطة الشكل التى كان يردد فى رحابها صلواته ، وهو يرقب الاشرعة البيضاء عند الأفق البعيد .. ومالبث القسان ان نهضا متأهبين للانصراف .. وطبع الشيخ قبلة الوداع على جبين « جان » التى أحست بالدموع توشك أن تتبادر الى مقلتيها

وبعد أسبوع ، وفد الأب « تولبياك » على القصر مرة أخرى ، وتحدث عن الاصلاحات التى سنّها — كما لو كان أميراً يتولى الملك ! — ثم سأل الفيكونتة أن لاتتخلف عن قداس يوم الاحد ، وعن تناول القربان المقدس فى أعياد الكنيسة .. وقال يوضح رجاءه : « انت وأنا نرأس هذا المكان ، فلا بد من ان نسوس أموره ، وأن نكون قدوة لأهله .. كما انه لابد لنا من أن نتعاون كى نصبح أهلاً للسلطة والحظوة بالاحترام .. واذا

سارت الكنيسة والقصر يداً فى يد ، فسوف تخشع الاكواخ
وتطيع « !

★ ★ ★

♦ وكانت نظرة « جان » الى الدين تقوم على العاطفة والفكر،
فكانت تعتنق ذلك الايمان الحالم الذى لا تتخلى عنه امرأة ..
واذا كانت قد ظلت تؤدى واجباتها الدينية ، فانما كان ذلك
نزولاً على حكم العادة التى اكتسبتها فى مدرسة الدير ..
وكانت فلسفة أبيها المتحررة قد قلبت معتقداتها رأساً على
عقب منذ زمن طويل ، ومن ثم فقد قنع الأب « بيكو » منها
بالقليل الذى كانت تبديه ، ولم يحاول يوماً أن يلومها أو
يؤنبها .. أما خليفته فقد بادر الى القصر ، حين افتقدها فى
قداس يوم الاحد ، وقد اشتد استياؤه .. ولما كانت تكره أن
تكون على شقاق مع رجال « الابرشية » ، فقد وعدته بأن تتردد
على الكنيسة ، وان وطئت نفسها على التحلل من التزام عهدها
هذا بعد الاسابيع القلائل الاولى .

على أنها لم تلبث أن اعتادت التردد على الكنيسة شيئاً
فشيئاً ، وانصاعت - دون أن تفتن - لنفوذ القس الناحل
الجسم القوى التأثير والسيطرة .. فقد كان يرضى الجانب
الروحى من فطرتها بغيرته وحماسته .. وكان يعرف كيف
يوقظ العاطفة الدينية التى تكمن وسبابة فى نفس المرأة .
وكان زهده المتقشف ، وازدراؤه الدنيا وملاهيها ، واستهجانها
الطموح البشرى، وحبه الله ، وشبابه وكبرياؤه اللذان تنقصهما
التجربة ، وحديثه السديد الهدف ، وعزيمته التى لاتلين ..
كل هذه كانت توحى لجان بصورة لما ينبغى أن يكون عليه
الفدائيون الذين لا يضمنون بتضحية فى سبيل مبادئهم ..
ومن ثم فقد فتنت ، وهى المعذبة التى خابت أحلامها ، بما كان
عليه هذا القس « الطفل » من تعصب وتطرف ! .. حدثها عن

المسيح ، وأوضح لها أن مباحج التقوى الدينية كفيلة بأن تخفف كل آلامها ، فكانت تركع فى مقصورة الاعتراف ، وتشعر بتضاؤل وضعف أمام هذا القس الذى كان يبدو كالغلام الحدث !

بيد ان المنطقة كلها لم تلبث أن كرهته .. اذ كان من فرط قسوته التى لاتلين مع نفسه ، متعننا ، لا يتهاون مع الآخرين ! ولم يكن يثير غضبه وسخطه سوى شىء واحد : الحب ! .. كان يحمل عليه من فوق المنبر بأقسى التعبيرات .. وكان يسرف فى ذم خطيئة الشهوة ، ويرتعد غضبا لما كان يتصوره بصدها من مناظر تذكى من حدة نقمته ..

وكان الرجال والفتيات يتبادلون حين يسمعون حملاته نظرات مختلصة خبيثة ، والكهول من الفلاحين الذين يحبون أن يسخروا من مثل هذه الامور ، ينتقدون مسلكه وهم يسيرون نحو بيوتهم مع زوجاتهم وأبنائهم عائدين من الكنيسة ..

وئارت النفوس فى المنطقة كلها ، وأخذ الجميع يبدون تدميرهم من قسوة القس فى الاعتراف ، ومن ألوان التكفير الشاقة التى يفرضها . وعند ما أبى فى عناد أن يمنح الغفران للعدارى اللواتى لم ترتفع عفتهم عن مستوى الشبهات ، ازداد كرهه رعاياه له ، وأخذوا يضحكون ساخرين كلما رأوا فى أثناء الصلوات المشتركة ، فى أيام الاعياد ، بعض فتيات يلزمن مقاعدهن فلا يذهبن الى « المائدة المقدسة » مع الباقيين .. اعترافا منهن بأنهن خاطئات !

.. بل انه لم يلبث أن عمد الى التجسس على المحبين والعشاق - كما يفعل الصياد الذى يريد أن يوقع فريسة فى شركه - باذلا مجهودا فاشلا فى سبيل كبح جماحهم ! وصار

يطاردهم من « المخايء » التى يلوذون بها ، ومن وراء مخازن الغلال فى الليالى المظمرة ، وخلال الاحراش التى تنمو على سفوح التلال الصغيرة .. وذات مرة فاجأ عاشقين لم ينفصلا حين لاح لهما ، وكانا يسيران فى أخدود حجرى ، يتبادلان القبلات مع كل خطوة ، فصاح بهما : « هلا كففتما عن هذا أيها الاحمقان ! » .. ولكن الشابين لم يكثرثا ، بل التفتا وصاحا من وراء ظهرهما : « الزم اختصاصك يا سيدي القس .. ليس هذا من شأنك ! »

وعند ذاك التقط بعض الطوب وأخذ يرميها به ، كما ترجم الكلاب .. فجريا ضاحكين .. واذا به فى يوم الأحد التالى يشهر بهما من فوق المنبر معلنا اسميهما ! .. فكان أن كف جميع الرجال عن التردد على الكنيسة منذ ذلك الحين !

★ ★ ★

♦ وكان القس يتناول غداءه فى القصر يوم الخميس من كل أسبوع .. كما كان كثيرا ما يفد عليه أيضا خلال الأسبوع ، ليتحدث الى ربة الدار التى أصبحت متحمسة فى تقواها مثله .. فكانا يتناولان بالنقاش الامور غير المادية ، ويدرسان



الموضوعات الدينية المعقدة التى ما فتئت موضوع جدل منذ القدم .. فكأننا يسيران فى « طريق البارونة » وهما يتحدثان عن المسيح والحواريين ، وعن العذراء ، وعن أساقفة الكنيسة ، كما لو كأننا على معرفة بهم جميعا . ولقد يقفان أحيانا ، حين يثير أحدهما مسألة عويصة يأخذان فى مناقشتها فى فلسفة روحية .. وكانت جان تسوق للتدليل على آرائها حججا شاعرية أشبه « بالصواريخ » ، بينما كان القس - الذى كان عقله أكثر التزاما للمنطق - يجادل كعالم رياضى يحل معادلات « التربيع الدائرى » !

أما « جوليان » فكان يعامل القس الجديد فى احترام كبير ، ويردد دائما : « اننى أحب هذا القس ، فان الهزيمة لا تعرف اليه سبيلا » .. ومن ثم أخذ يتردد عليه ليفضى اليه باعتراقاته ، ويتناول السر المقدس كلما ارتقب منه ذلك ، ضاربا بنفسه مثلا رائعا للآخرين ..

وكان الزوج فى تلك الاثناء يقضى كل يوم تقريبا مع الزوجين « دى فورفيى » ، يصيد مع الكونت الذى ازداد به ولعا ، ويخرج للنزهة على ظهور الجياد مع الكونتة مهما ساء الجو واشتدت الرياح ! .. وكان الكونت يشير الى ذلك فى أحاديثه فيقول : « انهما مولعان بحب التركوب الى درجة الجنون ! .. على ان هذا يفيد زوجتى كثيرا » .

♦ وعاد والد « جان » من سفرته حوالى منتصف نوفمبر ، فاذا به قد تغير ، اذ بدا مكتهلا ، وكأنما أحنى ظهره الحزن الذى استبد بنفسه . وتضاعف شغفه بابنته ، وكأنما أذكت الاشهر القلائل التى قضاها فى وحدة موحشة ، من شوقه الى الحب والحنان . وتحاشت « جان » أن تذكر له آراءها ،

وصداقتها مع الاب « توليبياك » وتحمسها الدينى . على ان البارون لم يكذب يلتقى بالقس للمرة الاولى ، حتى تملكته كراهية هوجاء له ! فلما سألته ابنته فى ذلك المساء : « ما رأيك فيه ؟ » ، أجاب : « ان هذا الرجل « محقق » .. أكثر منه قسا ! وأعتقد أنه شديد الخطر » .. حتى اذا علم البارون من الفلاحين مدى تعنت القس وعنفه ، وكيف يحاول أن يجمع قوانين الطبيعة والفرائز التى خلقت مع الانسان ، تضاعفت كراهيته له وتحولت الى عداوة ! .. فقد كان من اولئك الفلاسفة الذين يعبدون الطبيعة ، وترق أحاسيسهم لمجرد رؤية ظواهرها . وكان يعتنق نوعا من الايمان بوحدة الله والكائنات - فللكون ألوهية بحكم وحدته مع الاله - وكان يتمرد على المذهب الكاثوليكي الذى كان يرى فيه تسليما بوجود اله يمتلك كل ما يمكن أن يتوفر فى أحد شيوخ « الجيزويت » من دهاء ، وما لائى طاغية من سلطان مهلك ! .. اله يستصغر فى ذهنه الخليفة الجبارة ، التى لا حد لها ، ولا حد لسلطانها وقوتها .. الخليفة التى هى الحياة والنور ، والارض والشمس ، والنبات ، والصخر ، والانسان ، والهواء ، والحيوان ، والنجم ، والله ، والحشرة .. كلها متحدة فى واحد - ولا يخلق الا لانه خالق ، فالخلق أقوى من الارادة وفوق كل جدل ..

.. وانما كان الخلق - فى رأى البارون - يشمل كل النطف والأصول ، يتطور فيه الفكر والحياة كما تنمو الأزهار والثمار على الاشجار ، تنتج عن غير هدف ، وبلا سبب ودون قيد ، وفى كل شكل يخطر بالبال ، وفقا لضرورات الحظ ، وتقارب الشمسوس التى ترسل الدفء للكون .. وكان التناسل فى رأيه هو قانون الكون الاكبر .. العمل القدسى ، الجليل ، الالهى ، الذى يتحقق به الغرض المبهم ، الدائم ، للكائن الشامل العام .. (الذى يتحد فيه الله والكون) !

ومن ثم أخذ البارون ينتقل من مزرعة الى أخرى ، يشن حملة شعواء على القس المتعصب ، الظالم ! وأحزن جان تطور الامور على هذا النحو ، فراحت تتوسل الى أبيها أن يكف عن حملته ، وتصلي لله من أجل ذلك . . ولكن البارون كان لا ينفك يجيب على توسلاتها بقوله : « هذا الصنف من الرجال يجب أن يحارب . . هذا واجبنا وحقنا ، فهم ليسوا بشرا ! » وكان يهز شعره الأبيض الطويل ، ويردد مستطردا : « انهم ليسوا آدميين . . انهم لا يفقهون شيئا . . انهم يصدرون عن مبادئ زائفة . . انهم ضد الطبيعة » . . وكان ينطق بكلمتى « ضد الطبيعة » فى لهجة من يقضى بكفر امرىء ويلعنه !

وكان القس على دراية بهذا العداء ، لكنه آثر أن يترىث ، رغبة منه فى أن يظل باسطا نفوذه على « جان » والقصر ، مطمئنا الى أن الفوز النهائى سيكون من نصيبه . وكانت تحدوه أيضا فكرة ثابتة ، واضحة : فلقد كشفت له المصادفة عن العلاقة بين جوليان وجيلبرت ، فرغب فى أن يوقفها باى ثمن ! ومن ثم ذهب الى جان ذات يوم ، وبعد حديث روحانى طويل ، سألها أن توحد جهودها معه نسحق انشر المستشرى فى أسرتها ، وأن تساعد على انقاذ روحين ضاليتين معرضتين للهلاك ! واذا عجزت عن ادراك ما كان يبغي منها ، سألته عن قصيده ، فلم يجب بأكثر من قوله : « ثم تحن الساعة بعد . . ولسوف ألقاك ثانية » ، ثم انصرف فجأة . .

★ ★ ★

♦ وكان الشتاء قد انتهى تقريبا . . وقد كان شتاء يانغا ، رطباً ، مطيراً . . وعاد القس ، بعد أيام ، فتحدث الى جان فى عبارات مبهمه عن علاقة خاطئة تقوم بين اثنين يجب أن يكون مسلکهما فوق كل مظنة . . وان من واجب كل الذين يفتنون

الى الواقع أن يعملوا على وقف هذه العلاقة بكل وسيلة ممكنة ! .. ثم استدرجها الى وجوب مراعاة « اعتبارات سامية » ، وأمسك بيدها وتوسل اليها أن تقصى قيود البشر الدنيوية عن عينيها ، لترى ما يجرى حولها ، ولتساعده في القضاء على الشر !

وحدثت في هذه المرة حقيقة ما كان يرمى اليه ، لكنها لاذت بالصمت ، اذ أفزعها التفكير في كل ما قد يجلبه هذا على بيتها الوداع من شقاء . ومن ثم آثرت أن تتظاهر بعدم الفهم . فلما رأى ذلك ، انطلق يتكلم دون ما قيد : « ان على واجبا أليما لا بد من أدائه يا سيدتى الكونتة ، ولست أجفل منه . ان رسالتى على الارض تلزمنى بأن أبصرك بشيء عليك عبء وقفه . ان زوجك على علاقة نابية بالسيدة دى فوريقي ! »

.. فنكست « جان » رأسها فى عجز ، وحيرة ، واستسلام .. بينما استطرد القس يقول : « ما الذى تعتزمينه الآن ؟ »

فتساءلت مرتبكة : « وما الذى أستطيع أن أفعله يا سيدى الاسقف ؟ »

فأجابها فى خشونة : « قفى فى طريق هذا الحب الخاطيء ! »

وانبثقت الدموع مدرارة من عيني « جان » ، وقالت فى صوت مثقل بالقنوط : « لقد خاننى من قبل مع خادم ، ولن يستمع لى اذا نصحته .. انه لم يعد يحبني ، بل هو يسيء معاملتى بمجرد أن أبدي رغبة لا تروقه .. فماذا أفعل ؟ »

ولم يجب القس على سؤالها ، بل صاح : « اذن فأنت تساعدن على ذلك .. انك ترضين مايفعل ، فأنت شريكة له ! .. كيف يعيش الفسق تحت سقف دارك وتحتملينه ؟ .. كيف تقع الجريمة تحت بصرك فتشيعن عنها ؟ .. أزوجة أنت ؟ أمسيحية أنت ؟ أم أنت ؟ »

قالت باكية : « وماذا تريدنى أن أفعل ؟ »
 - أى شيء إلا أن تسمحى بمثل هذا العار .. أى شيء !!
 أتركى زوجك .. اهربى من هذا البيت الموبوء !

- ولكنى لا أملك مالا ياسيدى القس .. ولا جرأة .. ثم
 كيف اتركه وليست لدى قرائن تثبت ائمه ؟ .. اننى لا أملك
 أى حق فى هذا ..

فنهض القس وهو يرتجف حنقا ، وقال : « انك مطية للجبن
 ياسيدتى .. ماكنت احسبك هكذا .. انك لاتستحقين
 رحمة الله ! »

وعندئذ ، تهاوت « راکعة وهى تهتف : « أواه ، لا تنبذنى
 .. ألا انصحنى ! »

فأجاب القس باقتضاب : « افتحى عينى السيد » دى
 فورفى ، « فهو الخلق بأن يحطم هذه الصلة »

وملاها اقتراحه هذا جزعا ، فهتفت : « أواه ! .. انه يقتلنى
 ياسيدى القس ، فضلا عن اننى بذلك افضحهما وأشهر بهما
 .. أواه لا .. أى شيء إلا هذا ! »

واذ ذاك رفع القس يده فى غضب ، كأنه يلعنها ، ثم قال :
 « ابقى فى عارك وجرمك ، لآنك أكثر خطيئة منهما .. انت
 الزوجة المتواطئة فى الاثم .. لن تكون لى بهذا البيت علاقة
 بعد الآن ! »

وتركها وكل جسده يرتجف من فرط سخطه ، فتبعته «جان»
 الى خارج الحجرة ، متأهبة للانصياع ، شارعة فى تقديم الوعود ،
 لكن القس وسع من خطاه متعجلا ، فى سورة من الغضب ،
 وهو يهز مظلته الزرقاء الكبيرة فى عنف .. وفجأة ، لمح جوليان
 يقف قريبا من سياج المزرعة وهو يشرف على بعض العمال ،

فانشنى الى اليسار ليتخذ طريقه خلال مزرعة « كويار » ، وهو يردد : « دعينى يا سيدتى .. لم يعد لدى ما أقوله لك »

★ ★ ★

♦ وفى وسط الساحة - فى طريقه - كان ثمة جمع من أطفال المزرعة والدور المجاورة قد تكأكأوا حول حظيرة الكلبة «ميرزا»، يتتبعون بأبصارهم فى اهتمام حاد ، وصمت ، واستغراق مشغوف ، شيئاً ما .. وكان اليارون يقف بينهم ويدها معقودتان خلف ظهره ، يرقب هو الآخر ما يجرى ، وقد بدا كناظر المدرسة بين تلاميذه .. لكنه حين رأى القس ابتعد متحاشياً ان يلتقى به . وكانت « جان » تلاحق القس قائلة : « امهلنى بضعة ايام يا سيدى القس ، ثم عد لتجدنى قدفكرت فى الامر ، فانبتك بما استطيع أن أفعل ، وبما اعددت ، ومن ثم نتشاور فى الأمر »

وبلغا مكان الاطفال المتجمعين ، فتقدم القس بضع خطوات ليتبين ما كان يجتذب اهتمامهم ، فاذا الكلبة «ميرزا» تتمخض ، وقد وضعت ستة من الجراء راحت ترحف حول أمها وهى تلعقها فى حنان .. وفى اللحظة التى انحنى فيها القس عليها ، برز جرو سابع ، فصفق الاطفال جميعا وهتفوا فى سرور « واحد آخر ! .. واحد آخر ! » .. كأنما كان المنظر مسرحية بالنسبة لهم .. مسرحية طبيعية لا تشوبها أية شائبة . كانوا يرقبون مولد الجراء كما يرقبون تفاحا يسقط عن شجرة !

وبهت القس فى البداية ، ثم تولته نوبة من غضب جامع ، فأمسك بمظلتة الكبيرة وانهاهال ضربا على رؤوس الصغار المحتشدين ، ففترقوا مذعورين بقدر ما استطاعت سيقانهم ان تحملهم ، وقد استولى عليهم الذهول .. ولم يلبث القس ان وجد نفسه وحيدا مع الكلبة التى كانت تحاول ان تستوى على أقدامها ، فلم يدع لها فرصة للنهوض ، بل شرع يضربها بجماع

قوته .. وعجزت الكلبة عن الهرب ، اذ كانت مشدودة الى حظيرتها ، فأخذت تن في ألم بالغ تحت ضرباته ، حتى تحطمت المظلة ! واذا فقد القس سلاحه ، تحول يطأها بقدميه في عنف مهشم ، ساحق .. ثم اكمل بكعب قدمه القضاء على الجسد الممزق الدامى الذى استمر يتلوى في اختلاجات متوجعة ، بينما كانت الجراء الوليدة تسعى في عماها وحيرتها ، يحثا عن قوت !

وكانت « جان » قد فرت مذعورة من هول ما رآته ، وفجأة أحس القس بقبضة قوية تلتف حول عنقه ، وطارت قبعته في الهواء .. وجره البارون في هياج شديد الى السياج ، ثم ألقى به في عرض الطريق . وعندما التفت السيد « لوبرتيوس » أبصر ابنته راكعة بجوار الكلاب الصغيرة ، تجمعها في ثوبها وهي تبكي . فسار اليها وهو يصيح ويلوح بيده في غضب : « هذا هو رجل الدين ! .. أرايته الآن على حقيقته ؟ »

وأقبل عمال المزرعة يشهدون الكلبة القتيل . وصاحت الأم « كويار » : « كيف قدر له أن يكون على هذه الدرجة من الوحشية ؟ »

والتقطت « جان » الجراء السبعة وأعلنت أنها ستتولى تربيتهن .. وحاولت أن تقدم لها بعض اللبن ، بيد ان ثلاثة منها ماتت في اليوم التالى . واذا ذاك انطلق الأب سيمون ينقب في المنطقة عن كلبة مرضعة ، فلما لم يجد ، احضر قطرة قال انها تصلح لارضاع الصغار .. لكن ثلاثة آخر من الجراء لم تلبث أن ماتت ، فعهدوا بالجرو السابع الى قطرة أخرى وجدوها له .. فتبنته القطرة لفورها ، وكفلته في عناية بالغة ..

وفطم الجرو بعد اسبوعين ، كى لا يثقل على الأم التى تبنته ، وقررت « جان » أن تربيته على الرضاعة من زجاجة . وأسمته « توتو » ، بيد ان أباهما استخدم نفوذه ليغير اسمه ، فجعله : « سلوتر » .. أى الذبيح !

★ ★ ★

♦ ولم يعد القس الى القصر ثانية . وفي يوم الأحد التالي ، صب لعنته ونقمته من فوق المنبر على اسرة البارون ، فهاجمها في صوت جهورى ، قائلا ان من الضرورى اجتثاث جذور الشر! . ورغم ان البارون وجد فى هذه الحملة تسلية لذت له ، فان اشارة القس - بعبارات مستترة - الى علاقة « جوليان » الجديدة ، أثارت هذا الأخير ، وجعلته يعمد الى تهدئة ثورة القس ، خشية الفضيحة !

واخذ القس يعلن فى كل عظة بعد ذلك ، ان ثأره لن يضيع ، وان يد الله لن تلبث ان تهوى على كل اعدائه ! .. فكتب « جوليان » شكوى مفعمة بالاحترام ، وان تكن حازمة ، الى الأسقف الأعلى ، الذى انذر الأّب « تولبياك » بالفصل ! .. وعلى اثر ذلك لاذ الأخير بالصمت . وأصبح بعد ذلك يرى فى نزعات طويلة فى الريف ، بمفرده ، وعلى وجهه أسرارير الغيظ . وكانت جيلبرت وجوليان يريان كل يوم وهما منطلقان على صهوتى جواديهما ، يبدو لهما كبقعة سوداء فى الحقل ، أو على حافة التل الجبرى المشرف على البحر ، او منصرفا الى قراءة صلواته فى احد الوديان الصغيرة ، فكانا يدفعان جواديهما عن طريقه ليتحاشياه !

وكان الربيع قد أقبل ، تصحبه وقدة العواطف ، فكانت الكوننة وجوليان يلتقيان كل يوم ، آنا هنا وآنا هناك ، تحت الحجب التى تهيئها الغابة لمن يلجأ اليها . واذ كانت أوراق الاشجار لا تزال قليلة ، خفيفة ، والعشب نديا رطبا ، ومن المحال ان يكونا فى مأمن تام من الاعين فى داخل الغابة ، فقد لاذا بكوخ من أكواخ الرعاة خلفه اصحابه منذ نهاية الخريف على قمة تل « فوكوت » . وكان الكوخ متنقلا ، اذ أقيم على عجلات ، وقد ترك مهجورا فى هذه البقعة الواقعة على بعد نحو خمسمائة متر

من التل الجيرى .. ولم يكن العاشقان يخشيان ان يفاجئهما فيه احد ، اذ كانا يكشفان منه السهل بأسره . وكان جوادهما ينتظران انصرفهما من الكوخ فى صبر ، وقد ربطا الى قوائمه . وفيما كانا يغادران مخبأهما ذات يوم ، لمحا القس جالسا بين الأعشاب البرية النامية على التل .. فقال جـوليان : « سنضطر الى ان نترك جوادينا فى المستقبل فى الوهدة المنخفضة لانهما قد يكشفان مخبأنا للقادم من بعيد ! » .. واخذنا منذ ذلك الوقت يربطان الجوادين فى درب مستتر بين الأشجار .. واذا كانا عائدين معا ذات مساء الى قصر «لافريليت» ليتناولوا العشاء مع الكونت ، التقيا بأسقف (ايتوفان) مقبلا من القصر ، فتنحى عن الطريق لهما ، ورفع قبعته دون ان ينظر اليهما ، فساورهما شعور قلق ، لم يلبث ان زايلاهما بعد قليل ..

♦ وفى أصيل ذات يوم ، كانت «جان» تجلس امام المدفأة - اذ كان البرد قد اشتد فجأة - فاذا بها تلمح الكونت « دى فورفيى » يسير فى عجلة نحو القصر ، فجال بخاطرها فى الحال ان امرا رهيبا قد حدث !

وبادرت الى استقباله ، فما ان رأت وجهه حتى خيل اليها انه قد اصيب بالجل ، فقد كان يرتدى قلنسوة كبيرة من فراء لم يكن يلبسها فى العادة فى غير البيت ، وسترة الصيد . وكان شديد الشحوب ، حتى لقد بدا شارباه - اللذان كانا يتسبان عادة مع بشرته الشديدة الحمرة - كجمرة من نار ، وأخذت عيناه تتحركان فى محجريهما فى هياج !

وتساءل متلعثما : « اظن زوجتى هنا .. اليس كذلك ؟ » فجذعت « جان » واضطربت ، ثم أجابت : « لا .. لم أرها اليوم »

واذ ذاك جلس ، كشخص تخاذلت ساقاه تحته ، ونزع
 قلنسوته بحركة آلية ، ومسح جبينه عدة مرات بمنديله ..
 ثم قفز واقفا وسار الى « جان » باسطا ذراعيه ، وقد انفرجت
 شفتاه كأنه يهم بأن يتكلم فيفشى سرا رهيبا .. ولكنه توقف
 فجأة ، وحدها بنظرة ثابتة ، ثم قال متلعثما كمن يهذى :
 « **ولكن .. ولكن زوجك .. وانت أيضا ..** » ، ثم اندفع
 خارجا في اتجاه المحيط .. وهرعت « جان » في اثره خافقة
 القلب ، تناديه ، وتضرع اليه ، وهى تقول لنفسها : « **لقد**
كشف الأمر ! .. ترى ماذا هو فاعل ؟ .. اواه ! .. ليت
لا يجدهما ! »

ولكنها لم تستطع اللحاق به ، فى حين انه اصم اذنيه عن
 سماع ضراعاتها ، واخذ يعدو غير متردد ، وهو واثق من مقصده ،
 ويقفز عبر الوهاد ، ويجتاز الأحرش ، حتى بلغ فى النهاية
 التل الجبرى . وظلت « جان » ترقبه فترة طويلة من أسفل
 السفح ، حتى اذا غاب عن بصرها ، كرت عائدة بقلب مثقل ..
 أما هو ، فقد انحرف الى اليمين ، وشرع يجرى .. وكان
 الزيد يكسو سطح البحر بطبقة بيضاء ، وثمة سحب قاتمة
 تسبح فى السماء ، وتغرق الساحل بالمطر . واخذت الريح
 تعوى وتئن وهى تلوى رقاب المحصول الجديد والأعشاب البرية
 وتحمل الى البر طيورا بيضاء كبيرة تبسو ككتل هائلة من
 الجليد ..

وصفعت قطرات المطر وجه الكونت ، وبللت خديه وشاربيه
 اللذين تدليا على قمه ، وملأت اذنيه بالضجيج ، وافعمت قلبه
 باضطراب صاحب .. وكان واذى (فوكوت) يستلقى امامه ،
 لا يلوح للبصر فيه سوى كوخ من أكواخ الرعاة ، قام فى مرعى
 مهجور .. والى قوائم الكوخ المتحرك ، ربط جوادان ، وكأنما
 اطمأن صاحباهما الى انه ليس ثمة ما يخشيان ان يعكر صفوهما
 فى مثل هذه العاصفة !

وما ان لمج الكونت الجوادين ، حتى زحف على يديه وركبتيه نحو الكوخ ، وقد بدا بجسمه الضخم ، وردائه المكسو بالوخل ، وقلنسوته الفرائية ، اشبه بوخش هائل . . ومضى يزحف هكذا نحو الكوخ المنفرد ، دون ان يجرؤ على رفع هامته خشية أن يراه من فى الكوخ خلال شقوق جدران الخشبية ! . . واذا رآه الجوادان ، ساورهما القلق ، فبادر الى قطع عنايهما بمدية مشرعة كانت فى يده . . وهبت على الكوخ فى تلك اللحظة نفحة من ريح باردة ، فانطلق الجوادان يركضان وقد لذعهما البرد الذى كان يتساقط على سقف الكوخ المنحدر ، فيجعله يهتز ويتأرجح على عجلاته الكبيرة . .



وما لبث الكونت ان استوى على ركبتيه ، وألصق عينيه بالشق الذى يفصل بين الباب والجدار ، وتطلع الى ما كان يجرى فى الداخل .. لكنه لم يتحرك ، بل ظل ساكنا يمسك أنفاسه . وانقضى بعض الوقت ، ثم نهض وقد جلله الوحل من رأسه الى قدميه ..

وفى حركة محنقة ، دفع المزلاج الذى يغلق الباب من الخارج ، فأوصده على من فيه ، ثم أمسك بذراعى الكوخ اللتين يربط اليهما فى العادة الجواد الذى يجره ، وراح يهز الكوخ كما لو كان يحاول ان يهشمه الى ألف قطعة .. وفجأة ، توسط الدراعين ، ومال بجذعه الى الامام فى جهد المستميت ، ثم دفع الكوخ بقوة تعادل قوة الثور ، فانفلت يجرى على عجلاته بمن فيه نحو السفح المنحدر الى البحر .. وتضاعدت من جوفه صرخات وطرقات - وما كان جوليان والكونتة ليدريا ما أصاب كوخهما ! - حتى اذا بلغ الكونت الدروة التى تسبق المنحدر ، ترك ذراعى الكوخ ، ثم دفعه بجماع قوته ، فانحدر الى الهاوية ! ورأى شريد طاعن فى السن - كان يقبع فى احدى الحفر - الكوخ وهو يمر من فوقه ، وسمع صرخات مروعة تنبعث من جوفه .. وعلى حين غرة ، فقد الكوخ الحشبي احدى عجلاته ، فمال على احد جوانبه وهو يتابع انحداره ، كمنزل اجتث من فوق جبل واخذ يهوى من عل .. واذا اعترضه آخر نتوء فى طريقه ، طار فى الهواء ، ثم هوى الى القاع .. فتهدم كقشرة بيضة !

♦ وما ان بلغ الارض ، حتى هبط الشريد الذى كان يركبه ، متسللا بين الاعشاب الكثيفة الى حيث استقر .. ولكن واعزا من اعماقه منعسه ان يقترب من الكوخ المحطم ، بل سار الى اقرب مزرعة يعلن نبأ الحادث ! .. فهرع عمال المزرعة الى موقعه

لفورهم ، ورفعوا الألواح عن حطام الكوخ ، فوجدوا جثتين مهشمتين ، داميتين ٠٠ وكان رأس الرجل قد شج ، وتشوه وجهه ٠٠ أما المرأة فقد تدلى فكها اذ انتقل لفرط عنف السقطة من مكانه ٠٠ وبدت اطرافهما المتشابكة طرية ، كأنما غابت العظام تحت لحمها ٠٠ ومع ما أصاب شكل الجثتين من تشوه ، فقد عرف صاحباهما ، وشرع كل امرئ يحدث سبب الكارثة ٠٠ وتساءلت احدى النساء :

— ترى ما الذى كانا يفعلانه فى هذا الكوخ ؟
واذ ذاك شرع الشريد المسن يروى لهم انهما ، على ما يبدو ، قد لاذا بالكوخ فرارا من العاصفة ، ولعل الريح القوية قد دفعته نحو السطح ! ٠٠ ثم اضاف قائلا انه كاد يلج الكوخ ، لولا ان رأى الجوادين مربوطين الى قوائمه ، فاستنتج انه مشغول ٠٠ واستطرد قائلا بتعبير يثير الضحك : « ٠٠ ولولا هذا ، لكان الحادث من نصيبى ! »

وانبعث صوت يقول : « لعل ذلك كان افضل ! » ٠٠ فانفجر الكهل فى سخط مرير : « لم كان ذلك افضل ؟ ٠٠ الا اننى فقير وقد كانا ثريين ؟ ٠٠ انظروا اليهما الآن ، وأشار الشريد بعصاه المعوجة الى الجثتين ، وهو يرتجف فرقا ، والماء يقطر من اسماله ، ولحيته المشعثه ، وشعره الطويل الذى تهدل من تحت قبعته الزرية ٠٠ ثم استأنف قائلا : « كلنا ازاء الموت سواء ! »

وازداد عدد الفلاحين الذى تجمعوا ، ووقفوا ينظرون الى الجثتين وعلى اساريهم امارات الجبن ، والانانية ، والقلق ، والمكر ٠٠ وتشاوروا جميعا فيما ينبغي ان يعمل ، واخيرا قرروا ان يحملوا الجثتين الى قصرى صاحبيهما ٠٠ طمعا فى جزاء !
ومن ثم اعدت لهذا الغرض عربتان . بيد ان مشكلة أخرى أثرت ٠٠ فقد رغب البعض فى ان ينثروا بضع حزم من القش

في قاع العربتين كليهما ، بينما رأى الباقون - بدافع من احترام الموتى - انه يجمل بهم ان يستخدموا خشيتين بدلا من القش . . . وهنا صاحت المرأة التي تكلمت من قبل : « ولكنهما ستتلوثان بالدماء . . . وسيغدو من الضروري غسلهما في بهاء » (جافيل) . واذا ذاك قال مزارع بدين ، ذو وجه ممثلي ، سمح : « اذن فلا بد لأهلها من ان يدفعوا ثمن الخشيتين . . . وكلما ارتفع قدرهما ، وجب ان يرتفع الثمن الذي يدفع » ! وكان اقتراحه الفاصل في الجدل . . . وما لبثت العربتان ذاتا العجلات الكبيرة - واللذان لم تزودا بزنبركات تخفف الاهتزازات - ان انطلقتا ببقايا العاشقين ، وقد اتجهت احدهما يمينا ، والاخرى يسارا . . .

★ ★ ★

♦ أما الكونت ، فكان قد بادر الى الفرار بقدر ما أيسرته ساقاه من سرعة ، بمجرد أن رأى الكوخ يقفز في فضاء الهوة . . . وانطلق يدوس الحشائش في الاحراش ، ويقفز فوق الحفر ، ويجتاز الطرق ، حتى وصل الى القصر مع مغرب الشمس ، دون أن يدري كيف وصل !

وكان الخدم المفزعون ينتظرونه لينبئوه بأن الجوادين قد عادا دون راكبيهما - وكان جواد جوليان قد تبع جواد جيلبرت الى القصر - فقال الكونت « دى فورفي » مضطربا : « لا بد ان امرا قد جرى لهما . . . فليخرج الجميع للبحث عنهما » . ثم غادر القصر مرة اخرى ، بيد انه لم يكد يغيب عن الابصار ، حتى اختفى في دغل واخذ يرقب . . . يرقب عودة المرأة التي ما زال يحبها في وجد طاغ ، والتي لن تلبث ان تحمل الى الدار ميتة ، أو محتضرة ، أو عاجزة مشوهة ما بقي لها من عمر ! وسرعان ما مرت به عربة تحمل شيئا غير عادي ، ووقفت امام أبواب القلعة ، ثم دخلتها . . . اجل ، كانت هي . . . هي . . . بيد

آن اُسی جبارا سمره الی الارض ، وشل حراکه خوف رهیب من الحقیقه ، فلم یملک سوی ان یجفل مذعورا لاُتفه صوت ، کما تجفل الاثرائب الجبلية !

وتبريث ساعة او اثنتين ، ولم تكن العربیة قد غادرت القصر بعد ٠٠ وتخیل زوجته تحتضر ، فاداً مجرد التفكير فی رؤيتها ، والتعرض لنظراتها ، یفعمان نفسه بذعر مفاجيء ضاعف خوفه من افتضاح امره ، او الاضطراب الی ان یشهد عذابها ٠٠ ففر الی الغایات ٠٠ ثم خطر له انها ربما كانت فی حاجة الی مساعدته ، وانها ربما لم تجد من یسعفها ، فاندفع نحو البیت ثانية ٠٠ واذ شارفه ، التقى بالبستانی ، فصاح به : « هل من نبأ ؟ » ٠٠ ولم یجرؤ الرجل علی الرد ، فعاد الی کونت دی فورفی



يصيح في صوت كان أقرب الى العويل : « هل ماتت ؟ » ..
فأجاب الرجل : « أجل يا سيدى الكونت » .. واذا ذاك أحس
بارتياح غامر ! .. وسرت في دمه وعضلاته المتوترة ، سكينه
سابقة ، فسار بخطى ثابتة ثم صعد درجات السلم الواسع ..

★ ★ ★

♦ وكانت العربية الاخرى قد بلغت ضيعة « أشجار الحور » ..
ورأتها « جان » وهى تقترب ، ولمحت الحشية ، فحدست أن ثمة
جثة ترقد عليها ، وأدركت ما حدث ! .. وكان خوفها وفزعها ،
من القوة بحيث انهارت على الارض فاقدة الرشد .. فلما عادت
الى وعيها ، كان أبوها يحتضن رأسها ويبلل جبينها بالخل ..
وسألها مترددا : « هل عرفت ؟ » .. فهمست : « أجل يا أبت ! »
.. ورغبت فى النهوض ، لكن آلاما قاسية شلت حراكها
وأبقته فى مكانها
وفى تلك الليلة ، وضعت جان مولودها .. ميتا ! .. وكان
المولود بنتا !

.. ولم تشترك فى تشييع جنازة « جوليان » ولا عرفت شيئا
عنها .. وتبينت بعد يوم أو يومين أن الحالة « ليزون » قد عادت
.. وراحت « جان » فى بحر ان الحمى تحاول جاهدة أن تتذكر
متى بارحت العانس العجوز قصر « الحور » ، وفى أية ظروف
كان رحيلها ..

ولكنها لم تستطع أن تصل الى تفسير مقبول ، حتى فى
لحظات صفاء ذهنها .. كل ما تذكرته هو أنها رأتها عقب موت
أمها !



الفصل الحادى عشر

♦ لزمت «جان» خلال الاشهر الثلاثة التالية غرفتها ، وقد شحبت لونها ، وأصابها ضعف شديد ، حتى ظن الجميع أنها لا بد هالكة . . . بيد أن قواها لم تلبث أن عاودتها تدريجاً . وكان أبوها والحالة «ليزون» يلأزمانها دائماً ، وقد أصبحا يقيمان فى قصر «الحور» . . . وخلفت لها الصدمة مرضاً عصبياً ، فكانت تفقد رشدها لا تفتقه حركة . . . وتغيب فى نوبات طويلة ، تعثرها لا بسط الاسباب . . .

. . . ولم تسأل قط عن موت جوليان ، اذ ما الذى كان يعنيهها منه ؟ . . . أو لم تكن تعلم عنه الكثير الذى يكفيها ؟ . . . لقد كان

كل انسان يظنه « حادثا » ، أما هى فكانت تعرف الحقيقة ..
وقد أغلقت صدرها على السر الذى كان يعذبها .. على ما عرفته
عن العلاقة الآثمة بين القتيلىن ، وعلى ذكرى تلك الزيارة
القصيرة العاصفة التى تلقتها من الكونت فى يوم الكارثة !
ومن عجب ، أن روحها فاضت بذكرىات حنون لذلك الحب
القصير الأجل الذى أحسنه نحو زوجها .. وكانت بين الحين
والآخر ، تستغرق فى ذكرى تواتيها بغتة على غير توقع :
كانت تراه كما اعتاد أن يلوح خلال فترة الخطوبة الوجيزة ..
وكما كان خلال شهر العسل ، فى المرة الأولى التى أحسنت فيها
يقظة العاطفة المتأججة تحت شمس (كورسيكا) الملتهبة ..
وكانت كل أخطائه تتضاءل فى ذاكرتها .. وكل جفوتته
تتلاشى .. حتى خياناته ، خبت وتوارت فى القبر الذى دفن
فيه !

وغدت « جان » تحس بالعرفان لجميل الرجل الذى احتواها
يوما بين ذراعيه .. فغفرت له قسوته ، ولم تعد تذكر سوى
لحظات الهناءة فى حياتهما الزوجية .. وما لبثت مع مرور الزمن ،
ومع توالى الايام والشهور ، أن أسدلت على أحزانها وذكرياتهما
ستارا ، وكرست نفسها نهائيا لتربية ابنتها .

♦ ونشأ الصغير معبودا من أمه ، وجده وخالة أمه .. كان
قبلة حياتهم ، وكان يستعبدهم كخاكم مطلق مستبد ! .. بل
أن نوعا من « الغيرة » نشأ بين هؤلاء « العبيد » الثلاثة ، فقد كانت
« جان » تستشعر انفعالا شاذا كلما رأتة يحتضن جده بعد أن
يكون هذا قد أرجحـه على ركبتيه .. وكانت الحالة ليزون
- التى أهملها الطفل فى غير اكتراث ، كما كان يفعل كل فرد
آخر ، والتى كان يعاملها أحيانا كما لو كانت خادما ، رغم أنه
لم يكن قد عرف بعد كيف ينطق ! - كانت الحالة ليزون تحبس

نفسها فى غرفتها وتبكى ما كانت تلمسه منه من المظاهر
التافهة للحب ، فى الوقت الذى كان فيه الصغير لا يبدي حبا
لغير أمه وجده !

ومر عامان لم يتخللها حادث يذكر . . ومع مطلع الشتاء
الثالث ، قررت الاسرة الانتقال الى (روان) حتى بداية الربيع
ومن ثم حزم أفرادها جميعا متاعهم ، وغادروا قصر « أشجار
الخور » . بيد أنهم لم يكادوا يصلون الى البيت الرطب المهجور ،
حتى أصيب « بول » بنزلة شعبية شديدة الوطأة ، حتى لقد
خيف أن تتطور الى التهاب رئوى ، ومن ثم قرر أهله أنه لن
يقدر له أن يتحسن وينتعش فى أى مكان غير الريف ، فلم يكد
يتمائل للشفاء ، حتى عادوا الى قصر « الخور » ثانية . . .

واذ ذاك بدأت سلسلة من الاعوام الهائثة ، الهادئة . . فكانوا
دائما يجتمعون حول الطفل ، فى غرفته أحيانا ، أو فى غرفة
الجلوس ، أو فى الحديقة ، فيمضون فى الضحك من لغثته ،
وأحاديثه الفكاهية ، وحر كاته . . وكانت أمه تدعوه فى تدليل
« بوليه » ، ولم يكن يعرف كيف يلفظ الكلمة ، فكان ينطقها
فى تحريف يقربها من الكلمة الفرنسية التى تعنى « كتكوت » . .
الامر الذى لم يخفق قط فى اثارة عواصف من الضحك . وعلق
بالصغير هذا الاسم الجديد ، فلم يكن ينادى بعد ذلك الا به !

واذ كان الصبى سريع النمو ، فقد غدا من ألوان التسلية
لاقاربه الثلاثة - الذين أطلق عليهم البارون « أمهاته الثلاث » -
أن يقضوا أوقات فراغهم فى قياس نموه . . فحفروا لهذا
الغرض على باب حجرة الجلوس - بمطواة - علامات تشير الى
ازدياد طوله من شهر الى آخر . . وقد أطلقوا على هذا المقياس
« مقياس الكتكوت » ، وجعلوا له فى حياتهم اليومية مكانة
هامة !

وبعد فترة من الزمن ، ظهر فى حياتهم مخلوق جديد لعب

دورا هاما في الاسرة . . ذلك هو « الذبيح » - « سلوتر » -
الكلب اليتيم ، الذي كانت « جان » قد أسرفت في اهماله ، اذ
انصرفت بكل نفسها وحواسها الى ابنها ، فصار الكلب يوثق
دائما الى حظيرته أمام مخزن الغلال ، يعيش فيها كالناسيك ،
لا يعنى به ويغذيه غير الطاهية « لوديفين » . . حتى حدث أن
لاحظ « بول » الكلب ذات صباح ، فبكى بكى يسمحوا له بأن
يربته ، ومن ثم أخذه الى الحيوان فى شىء من الغضاضة
والمضض . لكن الكلب استقبل الطفل بفيض من مظاهر الود ،
كما أحس الطفل ميلا كبيرا الى الكلب ، وأخذ يصرخ معارضا
حين آن لهم أن ينصرفوا به عنه ، ومن ثم فك قياد « سلوتر » ،
وسمح له من ذلك الحين بأن يعيش فى داخل القصر . .
وأصبح الاثنان لا يفترقان ؛ يلعبان معا ، ويتمرغان سويا
على السجاد ، وما لبثوا أن أذنوا لسلوتر فى أن ينام فى سرير
رفيقه الصغير ، الذى كان يأبى أن يفترق عنه لحظة . . وكانت
« جان » تحاول أن توهن من هذه الصداقة ، خشية البراغيث !
. . بينهما لم تغفر الحالة « ليزون » للكلب أن نال كل هذا القدر
من ود الصغير ، وقد كانت هى به أولى !

وكانت الاسرة تزور فى فترات متباعدة أسرته « دى برينز
فيل » و « كوتلييه » ، ولكن لم يكن يتردد على القصر بانتظام
سوى العمدة والطبيب . . ولم تدخل « جان » الكنيسة منذ مقتل



الكلبة «ميرزا» ، والنهاية الرهيبة التى لقيها «جوليان» و«جيلبرت» اذ ساورتها الريب فى القس الذى كانت وشايته سببا فى الكارثة ! وكانت تحس باستنكار لأن يكون لله مثل هذا الخادم .. أما هو فكان يحمل من آن الى آخر على القصر فى قسوة ، ويعلن أن روح الشر .. روح العصيان الخالد .. روح الخطأ والزيف .. روح الاثم .. روح الدنس والفساد ، قد سكنته ! - وكانت هذه هى الالقاب التى خلعاها على البارون !

وكانت كنيسة قد غدت - فى الواقع - مهجورة ، وكان اذا جاس خلال الحقول والفلاحون يحرقونها ، لم يتوقف أحدهم عن عمله ليتحدث اليه ، ولا التفت أحد نحوه أو انحنى له ، فقد داخل الجميع الظن بأنه يمارس السحر ، لأنه طرد الروح الشريرة مرة من جسد امرأة ! .. ولأنه كان يعرف الكلمات التى تقضى على ما يعمل للماشية والناس من أعمال سحرية ، اذ كان ينظر الى هذه النوبات على أنها عبث من الشيطان . وكان يكفى أن يضع يده على البقرة التى تدر لبنا أزرق ، أو التى يلتوى ذيلها ، ثم يهيمهم ببضع كلمات غامضة ، فاذا كل شئ يعود سيرته الاولى !

وكان ضيق عقله وتعننه المتهوس قد اقترنا بتحمسه العارم ، مما قاده الى دراسة الكتب الدينية التى تبحث فى الصور التى يظهر بها الشيطان للناس ، وفى مختلف مظاهر قوته ، وفيما له من ألوان النفوذ المتباينة ، ما يرى منها وما لا يرى ، وفيما له من موارد ومن حيل ! .. واذا كان القس يخال أنه قد بعث خصيصا لمكافحة هذه القوة الغامضة ، الخطرة - قوة الشيطان - فقد جهد فى حفظ كل التعاويذ التى وردت فى الكتب الكنسية .. وكان يعتقد بأن روح الشر تكمن فى الظلام ، فلا ينفك يتمتم بالتعاويذ .. ومن ثم انتشر بين الفلاحين الخوف من قوته الخفية .. بل ان زملاءه من كهنة الريف الجهلة الذين كانوا يؤمنون

بقبليس ايمانهم بالله ، والذين أساءوا فهم ما ورد في كتبهم من
أوصاف الطقوس التي تتبع اذا ما أظهر الشيطان نفوذه ، ومن
ثم خلطوا بين الدين والشعوذة . . حتى هؤلاء اعتبروا الاب
«تولبياك» ساحرا ضليعا ، ولعلمهم ازدادوا له احتراما ، لما عزوه
اليه من قوة ، ولما كان يأخذ به نفسه من حياة منيعة ، متقشفة
ولم يعد « الأب » ينحني محييا « جان » اذا ما تقابلا . .
فأزعجت هذه الحال الحالة ليزون ازعاجا كبيرا ، اذ لم تكن
لتتصور - في نفسها العانس الساذجة - كيف يمكن للمرأة أن
يعيش في منأى عن الكنيسة . وكانت دون شك تقية ، ولكن
أحدا لم يعلم بذلك أو يحاول أن يعلم . . وكانت اذا وجدت
نفسها وحيدة مع «بول» حدثته عن الله ، فكان ينصت اليها في
شغف وهي تروي له قصص المعجزات التي اكتنفت بداية
الدنيا ، ولكنه كان يجيبها أحيانا اذا قالت انه يجب أن يحب
الرب حبا قويا : « أين هو يا خالتاه ؟ » . . وعندئذ كانت تشير
الى السماء باصبعها وتجيب قائلة : « انه هناك ، في السماء
يا «بوليه» ، بيد أنه لا ينبغي لك أن تتحدث بهذا لأحد » ، فقد
كانت تخاف البارون الى درجة كبيرة . . على أن « الكتكوت »
فاجأها ذات يوم بقوله : « ان الرب موجود في كل مكان ، عدا
الكنيسة » . . وأدركت أن الصبي أنبا جده بالأحاديث التي
سمعتها من خالته !

♦ وناهز «بول» العاشرة ، بينما أصبحت أمه تبدو كما لو
كانت في الأربعين . . وكان قوى الجسم ، كثير الضجيج ، على
استعداد دائما لأن يتسلق أية شجرة ، لكنه كان يعزف عن
حفظ دروسه ، وكان اذا أسأمته هذه الدروس أهملها في
بساطة ! . . وكلما استبقاه جده أمام كتاب ، فترة أطول من
المعتاد ، كانت جان تقول : « ألا دعه يلعب ، فما ينبغي أن

نتعبہ ۰۰ انہ لا یزال صغیرا ! » ۰۰ کانت تتوہمہ دائما ابن عام واحد ، وکانہا لا تلحظ انہ یمشی ، ویجری ، ویتکلم فی لہجۃ الغلام الناضج ۰۰ وکانت تعیش فی خوف مقیم من أن یسقط الغلام فیصاب بسوء ، أو یصاب ببرد ، أو یسرف فی اللعب ، أو یأکل أكثر مما تقوی معـدته علی أن تھضم ، أو أقل مما تتطلب قواہ

واذ بلغ الثانية عشرة ، ظهرت مشكلة عويصة ۰۰ مشكلة اشتراكه الاول فی فريضة « العشاء الرباني » . ففي ذات صباح ، سعت « ليزون » الى « جان » وصارحتها بأنه لم يعد من الجائز أن يمضي الغلام فی حياته دون أن يتعلم الدين ، ویؤدي واجباته الاولى ۰۰ وراحت تجادل ، وتجادل ، متذرة بمائة حجة ، کانت اقواها الاشارة الى ما سوف یقوله الناس عن هذا الوضع . فترددت « جان » قائلة ان فی الوقت متسعا للتفكير فی الامر ۰۰

ولكن ، حدث بينما کانت الاسرة فی زيارة الفیکوننتـ « دی بریزفیل » - بعد شهر - ان تساءلت السيدة عفوا عما اذا لم تكن تلك السنة هی السنة التي يجب أن یشارك فیها « بول » فی فريضة العشاء الرباني لأول مرة ، ففوجئت « جان » بالسؤال ، وأجابت : « اجل یا سيدتي » ۰۰ وكان فی هذا الجواب فصل الخطاب ، فسألت جان الحالة « ليزون » - دون أن تخبر أباهـا بقرارها - ان تصطحب الغلام الى « مدرسة الاُحد » ۰۰

وسارت الامور علی ما یرام فی الشهر الاول . بيد ان « الکتکوت » لم یلبث ان عاد ذات مساء وفي صوته بحة ، انقلبت فی اليوم التالي الى سعال . وسألته امه الملهوفة ، فعلمت ان القس أوقفه أثناء الدرس لدى باب الكنيسة - فی مهب الهواء - لسوء سلوكه ! ۰۰ وعلى أثر ذلك استبقته أمه فی البيت تعلمه دروس الدين بنفسها . واذ ذاك ، ورغم

توسلات « ليزون » ، أبي الارب « تولبياك » ان يدرجه في عداد المعمدين الذين يحضرون العشاء الرباني ، قائلا ان الغلام لم يستكمل استعداده الديني ! .. ثم كرر الرفض في العام التالي ، فاشتد غضب البارون ، وأعلن ان لا داعي للايمان بالفكرة التي تعتبر هذه المظاهر والطقوس الخاصة بالقربان ضرورة لكي يغدو اراء مستقيما ، صالحا . ومن ثم قررت الاسرة تنشئة الغلام كمسيحي ، دون داع لانتمائه للمذهب الكاثوليكي ، حتى اذا بلغ سن الرشد ، كان له أن يختار المذهب الذي يروقه ..

وزارت « جان » - بعد ذلك بقليل - آل « دي بريزفيل » ، ولكن الزوجين لم يردا الزيارة . واذ كانت تعرف مدى اهتمام جيرانها بمراعاة آداب السلوك ، فقد أدهشها هذا التغاضي ، بيد ان المركيزة « كوتلييه » سرعان ما كشفت لها - في ترفع وأنفة - سبب امتناعهم عن زيارتها . اذ كانت المركيزة تعتبر نفسها - بحكم مركز زوجها ولقبه الرسمي ، وثروتهما الطائلة - ملكة على عليية القوم في مقاطعة (نورماندى) ، وكانت تتصرف كملكة حقيقية ، فتبدي من الترفع أو التلطف ما يتفق والمناسبة ، وتوبخ ، أو تنبه ، أو تهنيء ، كما يتراءى لها ! .. فلما زارتها « جان » ، لم تلبث المركيزة ان قالت لها بجفاء ، بعد عبارات موجزة ، باردة : « ان المجتمع ينقسم الى طبقتين : أولئك الذين يؤمنون بالله ، وغير المؤمنين .. ونحن نعتبر الأولين - حتى أصغر صغير فيهم - أصدقاء لنا ، أما الآخرون ، فلا شأن لنا بهم اطلاقاً ! »

وصمدت « جان » للهجوم فبادرت متسائلة : « ولكن ، أو ليس من الجائز للمرأة ان يؤمن بالله دون ان يذهب الى الكنيسة ؟ »

فأجابت المركيزة : « لا ياسيدتى .. فالكاثوليك الصالحون يتسعون الى عبادة الله في كنيسته ، بنفس الحرص على الذهاب

لزياره الناس فى دورهم « فأجابت « جان » وقد أحست بأذى من قولها : « ان الله موجود فى كل مكان يا سيدتى .. وانا اذ اؤمن برحمته فى قرارة فؤادى ، لا أشعر بوجوده حين يتوسط بعض قساوسة بينه وبينى ! »

فنهضت المركيزة قائلة : « ان القسس يحمـلون لواء الكنيسة يا سيدتى ، وكل من لا يتبع اللواء يعتبر خصما له ، ومن ثم فهو خصم لنا ! »

فقالت « جان » وقد نهضت هى الاخرى : « لك يا سيدتى ان تؤمنى بالله يعنى بالتعصب والمظاهر ، اما أنا ، فانى اؤمن برب التقوى والصلاح .. »

واكتفت بأن هزت رأسها محيبة ، ثم انصرفت

♦ وكان الفلاحون - هم الآخرون - يلومونها فيما بينهم على تهاونها بشأن اثبات تعמיד « بول » .. ومع انهم لم يكونوا يواظبون على حضور الصلاة فى الكنيسة ، أو يتناولون فريضة العشاء الربانى ، أو حتى يقربون المائدة المقدسة فى عيد الفصح وفقا للطقوس الكنسية ، الا ان الأمر كان يختلف لديهم فيما يتعلق بالأطفال ، فكانوا جميعا يتورعون عن الاقدام على تربية طفل دون تعמיד .. والدين - رغم كل شىء - دين !

وفطنت « جان » الى هذا الاستهجان ، فأحست بالغيظ ازاء الرياء الذى يتمثل فى الخوف من اللوم ، والجبن الذى يكمن فى قلوب الناس ، ويستخفى عن الانظار تحت ستار مثل هذه المظاهر !

وتولى البارون بنفسه تعليم « بول » ، فشرع يلقنه اللغة اللاتينية .. فكانت أمه لا تفتأ تقول له : « يجب - فوق كل شىء - ان لا ترهقه » .. واضطر أبوها الى ان يحرم عليها دخول الحجرة التى كان بول يتلقى فيها دروسه ، لأنها كانت

لا تنفك تقطع عليهما الدراسة لتتساءل : « هل تحس قدماك بردا يا كتكوت ؟ » أو « هل تشعر بصداع يا كتكوت ؟ »
 .. وكانت تقطع على المدرس استرساله قائلة : « لا تضطره الى الاكثار من الكلام ، والا آذيت حلقه ! » .. فلما حرم عليها أبوها ذلك ، قنعت بأن « تحوم » حول غرفة الدرس ..
 وكان بول اذا ما فرغ من درسه ، بادر بالخروج الى الحديقة مع خالته وأمه ، فلقد اشتد بثلاثتهم الميل الى الفلاحة ، وأخذوا يزرعون الشجيرات الصغيرة فى الربيع ، ويبدرون الحبوب ويراقبون نموها فى ابتهاج ، ويقلمون الاغصان ، ويقتطفون الزهور ليصنعوا منها باقات ..
 وكان من أكثر دواعى السرور لدى « بول » أن يزرع مختلف أصناف خضر السلطة ، فكانت له أربعة حياض يستنبت فيها جميع النباتات التى تؤكل أوراقها - كالخس - فيحفر ، ويروى ، ويغرس ، ويجتث الحشائش ، بمساعدة « امهاته » الثلاث اللاتى كن يعملن كالحاديات المكلفات بتنظيف الأرض .. كن يقضين الساعات راكعات فى أحواض السلطة ، ملطخات أثوابهن بالأقذار التى تعلق بأيديهن ، لكى يغرسن جذور النباتات الصغيرة فى الثغرات التى يحفرنها فى الأرض بأصابعهن ..

♦ واشرف « بول » على الخامسة عشرة من عمره ، وكان طوله فى ازدياد ، حتى لقد سجل على مقياس حجرة الجلوس خمسة وخمسين سنتيمترا فوق المتر ، لكنه ظل بعقله طفلا ، جاهلا ، أحمق ، دللته المرأتان وجدته العجوز .. فكان متخلفا عن سنه فى كثير من الأمور

وأخيرا ، تعرض البارون فى حديثه ذات مساء لموضوع « المدرسة الثانوية » .. فانخرطت جان فى البكاء لفورها ، وانزوت الحالة ليزون فى ركن معتم من الحجرة .. ثم تساءلت

الام : « ما حاجته الى مثل هذا القدر من التعليم ؟ .. لسوف ننشئه نشأة عليّة القوم من الريفين ، ليصبح من سادة المزارعين ، فيعنى بأملكه كالكثرّة من النبلاء الآخرين ، ويعيش سعيدا ، ويكبر فى هذا البيت الذى عاش فيه أبواه من قبله ، وقد يموت هنا أيضا .. فماذا يبغي أكثر من هذا ؟ »

بيد ان الجد المسن هز رأسه قائلا : « ماذا تراك قائلة اذا جاءك يوما وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، فقال : « اماه ، اننى لست شيئا مذكورا .. فانا لا أعرف شيئا ، نتيجة خطئك ، وأمومتك الانانية .. اننى أرانى عاجزا عن العمل ، وعن أن أكون ذا مكانة ، مع اننى لم اخلق للحياة المغمورة ، المتواضعة ، الحزينة ، التى قضى على بها حبك القصير النظر ؟ »

ولم تخرجان جوابا ، بل جففت دمعها ، والتفتت الى الفتى قائلة : « حدثنى يا « بوليه » .. اترك ستلومنى يوما لاننى أسرفت فى حبك ؟ »

فأجاب الفتى الطويل مشدوها : « لا ، يا اماه »

— أفقسم على هذا ؟

— أجل ، يا أماه ..

— ألسنت تؤثر البقاء هنا ؟

— بلى ، يا أماه ..

ولكن الجد قال فى حزم : « ليس لك الحق يا جان فى ان تتصرفى فى حياته .. ان هذا الذى تفعلينه ينطوى على خسة واجرام .. انك تضحين بابنك فى سبيل سعادتك ! »

فدفنت وجهها فى راحتها ، وانخرطت فى البكاء قائلة : « لقد كنت جد تعسة .. جد تعسة ! .. وها أنتذا تريد أن تفصل عنى ابنى فى الوقت الذى بدأت أجد فيه بعض

السعادة .. ثم استطردت خلال عبراتها : « ماذا يكون من أمرى الآن .. أأعدو وحيدة تماما ؟ »
 فنهض أبوها وسار إليها فاحتضنها وهمس لها :
 « أو تنسين وجودى يا جان ! » .. فألقت ذراعيها حول عنقه وقبلته فى حنان ، ثم جاهدت لتتمالك صوتها وأجابت :
 « أجل .. لعلك على صواب يا أبى .. لقد كنت غبية حقا ، ولكننى لاقيت الكثير من العذاب .. والآن تجدنى راغبة فى أن يذهب بول الى المدرسة الثانوية »

وشرع « الكتكوت » هو الآخر فى البكاء ، دون أن يدري تماما ما الذى يراد بمستقبله ، فأقبلت « الأمهات الثلاث » على تقبيله ، وتدليله ، وتشجيعه ، حتى اذا أوا الى مضاجعهم ، كانت قلوبهم مثقلة بالهم ، فأغرقوا جميعا وسائدهم بالدموع فى ذلك المساء - حتى البارون الذى كان قد تمالك نفسه فى البداية ! - وقرروا أن يرسلوا الفتى الى مدرسة ثانوية فى (الهافر) فى بداية الموسم الدراسى الشتوى .. ومن ثملقى الفتى طيلة الصيف من التدليل فوق ما كان يلقي من قبل ! وكانت أمه كثيرا ما توجس كلما فكرت فى الفراق المقبل .. وابتاعت له من الثياب ما يكفيه لغيبة عشر سنوات ! .. وعندما حان موعد الرحيل ، فى صباح أحد أيام أكتوبر ، رافقته المراتان والرجل المكتهل فى عربة الاسرة التى يجرها جوادان ..

وكانوا قد اختاروا له - خلال رحلة سابقة - مكانا فى « عنبر » النوم بالمدرسة ، ومقعدا فى قاعة الدرس .. وقضت جان والحالة ليزون نهارا كاملا فى ترتيب متاعه فى ادراج صوانه .. فلما لم يتسع الصوان لاكثر من ربع ثيابه ، ذهبت أمه الى مدير المدرسة وسألته ان يسمح له بصوان آخر ..

وقال موظف استدعاه المدير ، ان مثل تلك الكمية من

الامتعة والملابس الداخلية ، ليست سوى عيب ، وانها لن تستعمل قط ، ورفض أن يقدم صوانا آخر ، عملا بلوائح المدرسة .. واستاءت « جان » ، فقررت ان تستأجر حجرة فى نزل قريب لتخزن فيها الثياب ، وكلفت صاحب النزل ان يحمل بنفسه الى الفتى كل ما قد يطلب ! .. واذ تم ذلك ، خرجوا يتنزّهون على رصيف الميناء ، ويشاهدون السفن وهى تنطلق الى البحر ..

وهبط الشفق على المدينة ، ففى اكتئاب ، فبدأت الانوار تومض فى الظلام تباعا ، وتناولوا العشاء فى مطعم ، لكن أحدا منهم لم يحفل بالأكل ، بل كانوا يتبادلون النظرات وأعينهم مغرورة ، وخادم المطعم يحمل اليهم طلباتهم ، ثم لا يلبث ان يرفعها دون أن تمس ! .. واتجهوا أخيرا الى المدرسة ، فاذا بأطفال من مختلف الاعمار يتوافدون من كافة الارحاء ، فى صحبة أقاربهم أو خدمهم .. وكان أكثرهم يبيكون ، والشهقات تسمع متصاعدة من جنبات الساحة الواسعة الخافتة الاضواء ..

واحتضن كل من « جان » و « الكتوت » صاحبه فترة طويلة ، والحالة ليزون تقف خلفهما وقد دفنت وجهها فى منديلها .. كانت نسيا منسيا ، كعهدا دائما . بيد ان البارون لم يلبث ان تعجل الفراق ، وقد أوشك ان يستسلم لعواطفه ! وكانت العربية فى انتظارهم لدى الباب ، فصعدت اليها الحالة ليزون ، وجان ، والبارون ، وسرعان ما انطلقت بهم عائدة الى القصر فى جوف الليل .. والشهقات المكتومة تتصاعد من آن لآخر فى اطواء الظلام

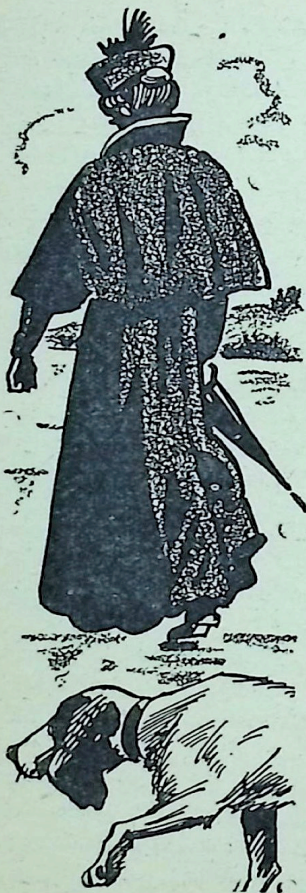
♦ وقضت « جان » يومها الاول غارقة فى دموعها .. فلما كان اليوم الثانى بعد العودة ، أمرت باعداد العربية كى تنطلق الى (الهاقر) .. فاذا بها حين نصل الى المدرسة تجد

ان « بوليه » قد وطن نفسه على الفراق وارتضاه ، اذ وجد لنفسه رفاقا للمرة الاولى ، وكانت رغبته فى اللعب معهم أقوى من ان تدع له وقتا يجلس فيه على مقعده فى قاعة الجلوس بالمدرسة

وأخذت « جان » تتردد على المدرسة لزيارته مرة فى كل يومين ، وتصحبه الى خارجها فى أيام الأحد . وكانت فى أثناء ساعات الدراسة تمكث فى قاعة الجلوس ، لا تجد من نفسها القوة ولا الجرأة على مبارحة المدرسة ، حتى اضطر الناظر فى النهاية الى ان يسألها الاقلال من زياراتها . لكنها لم تحفل برجائه ، فانذرها بأنه سيضطر الى ان يرد اليها ابنها اذا مضت تفحم نفسها على أوقات فراغه ودراسته ! .
كما كتب الى البارون خطابا بهذا المعنى ، فاضطر والدها الى ان يفرض عليها فى قصر « أشجار الحور » رقابة شديدة ، لم تعد معها تملك الذهاب الى المدرسة . ومن ثم أصبحت تتطلع الى كل عطلة مدرسية فى شوق يفوق شوق ابنها !

وتملك نفسها قلق مستديم ، فشرعت تقوم بجولات طويلة فى الريف ، ليرافقها سوى الكلب « سلوتر » ، وكانت تقضى النهار بأكمله أحيانا فى الخارج ، أو تقضى ما بعد الظهر جالسة على التل المشرف على البحر ترقب الموج ، أو تسير على قدميها الى (ايبور) ، سالكة الدروب التى اعتادت أن تسلكها خلال الغابة وهى فتاة . . ألا ما أبعد ماتلوح لها تلك الاحداث ! . ما أبعد ذلك الزمن الذى كانت فيه فتاة عذراء ، تخطر فى دروب الريف مسترسلة فى الاحلام ، مشيدة القصور فى الهواء !

وكانت كلما رأت ابنها خالت ان الفراق قد ضرب بينهما عشر سنوات . . وكان الغلام يقترب فى مظهره من الرجولة شهرا بعد شهر . . ومن شهر لشهر كانت « جان » تزداد



شبهها بالمكتهلات ، حتى لقد
أصبح أبوها يبدو الى جوارها
كما لو كان أخا ! .. وكانت
الحالة ليزون تبدو كأخت كبرى ،
فان السن كانت قد كفت عن
التقدم بها ، بعد ان خبت وذبلت
في الخامسة والعشرين ، وانتهى
أمر الزمن معها !

★ ★ ★

♦ ولم يكن « بول » تلميذا
مجتهدا .. ولقد استطاع أن
يجتاز العامين الأولين من
دراسته ، لكنه كان في العامين
الثالث والرابع أقل توفيقا ،
حتى بلغ العشرين ولما يزل في
مرحلة دراسة أصول اللغة
والبلاغة !

وكان في ثموه قد غدا فارعا ،
أشقر ، وخطت شفتيه معالم
شاربين واهنين .. واعتاد
أن يقف على قصر « الحور »
في يوم الأحد من كل اسبوع
وكان قد تدرب على ركوب الخيل
منذ صغره ، فلم يكن يتكبد أكثر
من استئجار جواد يقطع به
المسافة في ساعتين .. وكانت
« جان » تغادر القصر مبكرة

لتقابلته خلال الطريق ، مصطحبة « ليزون » والبارون ، الذى كان ظهره يزداد انحناء وتقوسا ، حتى لقد أضحي يمشى كالكله الضعيف ، عاقدا يديه خلف ظهره ليحفظ توازنه . . فكانوا يمشون على مهل ، ويجلسون على جانب الطريق كلما أحسوا تعباً ، وأبصارهم عالقة بالأفق ترتقب الفارس الشاب . . فما أن يلوح كنقطة سوداء على خط الأفق الأبيض ، حتى يأخذ ثلاثتهم فى التلويح بمناديلهم . . فيلكز جواده ويندفع نحوهم كالاعصار ، مما كان يثير الرعدة والخوف فى كيان أمه وخالته ، وينتزع الإعجاب الحماسى من جده الكليل . . ومع أن «بول» غدا أطول قامة من أمه ، فقد ظلت تعامله دواما كما لو كان صبيا يافعا ، ولا تفتأ تبدي له ما اعتادت أن تبدي من عبارات الرعاية والاشفاق ، كقولها : « أرجو أن لا يكون البرد قد تسرب الى قدميك يا (كتكوت) ! » . . وكانت تفتح نافذتها - اذا ما خرج بعد الفطور يمشى على الربوة ليدخن سيجارة - لتقول له منادية : « أرجو أن لا تخرج بدون قبعة ، والا أصابك برد » . . وكانت ترتجف قلقلًا اذا ما شرع فى العودة الى المدينة بعد هبوط الليل ، فتقول له : « لاتندفع فى ركوبك يا «كتكوت» . . أتوسل اليك . . فكر فى أمك المسكينة التى لن تعيش لو أصابك شئ ! »

★ ★ ★

♦ وفى صباح أحد أيام السبت ، تسلمت «جان» رسالة من «بوليه» يقول فيها أنه لن يستطيع أن يزورهم فى اليوم التالى ، لأن بعض أصدقائه نظموا نزهة سألوه أن يرافقهم فيها . . ومن ثم انقضى يوم الاحد وهى فى عذاب وقلق ، كان ثمة شرا يوشك أن يحيق بها . فلما كان يوم الخميس ، انطلقت الى (الهافر) لأنها لم تعد تحتمل القلق ! وبدا لها «بول» متغيرا ، وأن لم تدر كيف كان تغيره . . فقد كان أكثر نشاطا وابتهاجا ، وقد ازداد صوته عمقا .

وباغتها قائلا فى بساطة ، كما لو كان يتحدث عن أمر طبيعى : « مادمت قد جئت اليوم يا أماء ، فلن أقضى يوم الاحد فى قصر « الحور » ، لائننى سأقوم بنزهة أخرى خارج المدينة »

وفجعتها كلماته ، وداخلها من الجزع ماكان يصيبها لو انه أنبأها بأنه راحل الى بلد بعيد . ثم تمالكت نفسها الى الحد الذى مكنها من أن تتكلم ، فهتفت : « أوام ، يا « كتكوت » ! .. ماذا دهاك ؟ .. نبئنى ، ماذا فى الأمر ؟ » فلم يزد على أن ضحك ، ثم قبلها قائلا : « لا شىء يا أماء ! .. لقد أردت أن أستمتع برفقة الاصدقاء . هذا كل ما فى الامر ! »

وأعجزها أن تجد الكلمات التى تجيب بها .. وفيما كانت عائدة فى العربة ، وحيدة ، أخذت الأفكار الهاجسة تراودها : لا ، لم يكن هذا « كتكوتها » الصغير .. « كتكوت » الايام السالفة ! .. وتبينت للمرة الاولى أنه غدا رجلا ، وانه أخذ « يبتعد » عنها ، ويرغب فى أن تكون له حياته الخاصة ، لا يفكرها عليه أهله المكنهلون .. ولاح كأنما قد انقلب فى يوم واحد .. أفكان هذا ابنها ، الصبى الصغير الذى اعتاد أن يحملها على أن تحفر له فى الارض ، ليفرس الخضر ؟ .. أفكان هذا الشاب الملتحي ، الذى أصبح يبدى ارادته فى قوة ، هو عين ذاك الصبى ؟

ولم يظهر « بول » فى قصر الحور - خلال الأشهر الثلاثة التالية - الا مرة فى كل حين ، وكان فى كل مرة يبدى رغبة صريحة فى الرحيل بأسرع ما يستطيع ! .. فكان اذا حل المساء ، يلتمس العذر للمبادرة بالرحيل قبل الموعد بساعة .. وجزعت « جان » ، لكن البارون حاول أن يسرى عنها بقوله : « دعيه وشأنه ياعزيزتى .. دعيه يعيش لنفسه ! »

* * *

♦ الى أن كان ذات صباح ، اذ أقبل رجل رث الثياب ، يسأل في لكنة الألمانية واضحة ، عن « السيدة الفيكونته » . وبعد كثير من الانحناءات وابداء الاحترام ، أخرج من جيبه حافظة متسخة ، فتش بين محتوياتها وهو يقول : « لدى وريقة لك » . واصلها قصاصة قدرة قرأتها ، ثم أعادت قراءتها ، وتطلعت الى الرجل ، وعادت تقرأها مرة أخرى ، ثم سألته : « ما معنى هذا ؟ »

فقال الرجل وهو ينحني متذللاً : « سأوضح لك الامر . . لقد احتاج ابنك الى قسط من المال ، ولما كنت اعرف انك أم طيبة ، فقد أقرضته مبلغا بسيطا يكفي حاجته » . وتساءلت « جان » وهي ترتجف : « ولكن ، لم لجأ اليك . . لماذا لم يأت الى ؟ »

فشرع الرجل يشرح لها بأسهاب قصة دين تورط فيه الشاب وهو يلعب الميسر ، وكان لا بد له من أن يسويه قبل ظهر اليوم التالي . ولما كان قاصرا ، فانه لم يجد من يقرضه . . واذا كان الامر « يمس شرفه » ، فقد دفعت النخوة المتكلم الى أن يقدم للشاب مبلغا بسيطا . .

وهمت « جان » بأن تدعو البارون ، ولكنها لم تقو على مبارحة مقعدها لقسوة الصدمة التي أصابت أعصابها . . وأخيرا ، سألت الرجل أن يتفضل بدق الجرس . . وتردد الرجل ، خشية أن يكون ثمة شرك للايقاع به ، وقال متلعثما : « اذا كنت قد أزعجتك ، ففي وسعي أن أعود في يوم آخر » . . بيد أنها هزت رأسها ، فدق الجرس ، وانتظر معها مقدم البارون ، دون أن ينبسا ببنت شفة . . حتى اذا أقبل هذا ، ألم بالموقف من النظرة الاولى . . وكان السند بألف وخمسمائة فرنك ، فوضع البارون ألف فرنك على المنضدة ، وحذج الرجل بنظرة حادة ، قائلاً له : « اياك أن تأتي الى هنا مرة أخرى ! » ،

فشكره الرجل ، وانحنى ، ثم انصرف ..
وبادرت الام واجد بالرحيل الى (الهافر) ، بيد انهما
لم يكادا يبلغان المدرسة ، حتى قيل لهما أن « بول » لم يلجها
منذ شهر ، وان مديرها تلقى أربع رسائل تحمل توقيع « جان » ،
وتنبى بأن ابنها كان مريضا ، وانه لن يلبث أن يتمثل
للشفاء . وكانت كل رسالة مرفقة بشهادة طبية .. مزورة
بالطبع ! .. وبهتا لهذه الانباء ، حتى لقد وقفا يتبادلان النظرات
فى ذهول ، وقد ألتهما الحيرة عن الاستئذان فى الانصراف
.. وأثار الموقف كله قلق مدير المدرسة ، فصحبهما الى قسم
البوليس . ثم قصدت « جان » وأبوها بعد ذلك الى أحد
الفنادق لقضاء الليلة ! فلما كان اليوم التالى ، عثر على « بول »
لدى امرأة سيئة السرة ! فاصطحبه جده وأمه الى قصر الحور ،
دون أن يفتاحه فى شيء . وكانت « جان » تبكى ومندبليها
لا يفارق عينيها .. و « بول » يشرح بصره فى الريف غير
مكتوث !

وبعد أسبوع ، تبين أن الشاب اقترض خلال الاشهر الثلاثة
الاخيرة من دراسته ، مبالغ ارتفعت الى خمسة عشر ألفا من
الفرنكات ! .. وقد لزم الدائنون الصمت فى البداية ، اذ
كانوا يعلمون انه لن يلبث أن يبلغ سن الرشد بعد أشهر
قلائل ! .. ولم تسأله أمه وجده ايضاحا ، اذ خيل اليهما فى
البداية ان فى وسعهما أن يقوموا بالحسنى .. فآثراه
بأطياب المأكولات ، ودلاله ، ومازحاه ..

وكان الربيع قد أقبل ، فاستأجرا له مركبا فى (ايبور)
- رغم مخاوف « جان » - كى يخرج فى نزعات بحرية كلما
طاب له ذلك . ولكنهما حرما عليه ركوب الخيل ، خشية أن
يعود الى (الهافر) . وقضى الصيف فى خمول ، وانفعال
كان يؤدى به فى بعض الاحيان الى درجة القسوة والعنف !
وكان البارون مهموما بشأن تعليمه المهمل .. ومع أن « جان »

لم تكن راضية عن فراقه مرة أخرى ، لكنها لم تملك سوى أن توافق على أن لا بد من تدبير يصون مستقبل الفتى !

ولم يعد « بول » ذات مساء الى القصر . . وبلغهما انه خرج الى البحر مع اثنين من الصيادين ، فهرعت أمه عارية الرأس كالمجنونة الى (ايبور) تبحث عنه . . وكان ثمة عدد من الرجال لدى المرفأ في ارتقاب عودة المركب . . وما لبث أن تبدى على البعد ضوء ضئيل ، أخذ يقترب . . فلما وصلت المركب ظهر أن « بول » كان قد غادرها بعد أن أوصله الصيادان الى (الهافر) !

واخفق رجال البوليس في العثور على أثر له في هذه المرة . . اذ كانت المرأة التي اختبأ عندها في المرة السالفة ، قد اختفت هي الأخرى ، بعد أن سددت ايجار مسكنها ، وباعت متاعها . ووجدوا في غرفة « بول » بقصر الجور رسالتين كتبتهما تلك المرأة التي كانت تبدو مدلهة في هواه ، وقد حدثته فيهما عن رحلة الى انجلترا ، وعن انها دبرت النفقات اللازمة . وعاش الثلاثة الذين كانوا يعمرون القصر في جحيم من الانفعالات ، وقد خيم عليهم الصمت والاكتئاب . ونشطت بوادر المشيب التي كانت قد دبّت في شعر « جان » ، حتى كاد يغدو ابيض صافيا . . وكانت كثيرا ماتعجب للقدر وماعاملها به من قسوة !

★ ★ ★

♦ وذات يوم ، تلقت رسالة من الأب « توليبياك » يقول فيها : « لقد نزل بك عقاب الله ياسيدتى . . رفضت أن تهبيه ابنك ، فهاهوذا قد ابتزعه منك وألقى به في أحضان عاهر بغى ! . . أو لن تتفتح عيناك على هذا الانذار السماوى ؟ . . ليس لرحمة الله حد ، فلعله غافر لك اذا انت جئت وركعت

عند قدميه .. ولسوف أفتح لك - أنا عبده الذليل - بابه
فى أى وقت تطرقينه !

واستبقت الخطاب فترة طويلة على ركبتها ، وقد داربخلدها
ان من المحتمل أن يكون القس على حق ، فانتابت ضميرها
الهواجس الدينية .. أترى الله غيورا ، محبا للنثار كالانسان ؟
.. لو لم يكن غيورا ، لما خافه أحد ، ولما تعبد له مخلوق
.. فهو ولا شك قد أباح لنفسه هذه المشاعر والاحاسيس
البشرية ليتجلى لمخلوقاته أوضح مايكون .. ومن ثم تسلل الى
نفسها الشك الخائف ، المنطوى على الجبن ، الذى يجتذب
المعذبين عادة الى الكنيسة ..

وعندما هبط الظلام ذات مساء ، تسللت الى دار القس
النحيل ، حيث ركعت عند قدميه تسأله أن يطلب لها الغفران ،
فوعدها « بنصف » مغفرة ، لأن « الرب » - كما قال - ماكان
ليمنح كل رحمته لدار تضم رجلا كالبارون .. وأضاف قائلا :
« ولسوف ترين سريعا آثار رحمة الله القدسية » !
وبالفعل ، تلقت بعد يومين رسالة من ابنها ، فرأت فيها
- وهى فى غمرة همومها واضطرابها - أول مظهر لرحمة الله
.. وقد جاء فى الرسالة :

« لا تقلقى يا أماه ، قانا فى لندن ، وبخير ، ولكنى فى
أشد الحاجة الى نقود ، فلسنا نملك دانقا ، حتى اننا لنقضى
بعض الايام دون ما قوت . ولقد انفقت المرأة التى تعيش
معي - والتي أحبها بكل جوارحي - جميع ماكانت تملك ،
لتبقى معي .. وكان هذا الذى أنفقته خمسة آلاف من الفرنكات
.. ولعلك تدركين موقفى اذا قلت لك ان الشرف يدعونى الى
ان أرفع لها ما أنفقت ، قبل أى شيء آخر .. ولسوف أدين
لك بفضل كبير اذا اقرضتنى خمسة عشر ألفا من الفرنكات ،
من ميراث ابى ، ريثما أبلغ الرشد فى القريب . انك بهذا
تسلمين لى عوننا كبيرا ..

«وداعا يا امي العزيزة ، واني لا بُعث اليك والى جدى والخالة
ليزون بأخلص حبي ، وأرجو أن أراكم عما قريب »

ابنك : فيكونت بول دى لامار

هل كتب لها حقا ؟! .. اذن فهو لم ينسها رغم كل شيء !
.. ولم تشغل بالها بأمر ما كان يطلب من نقود ، فقد كانت
على استعداد لأن ترسل له أى مبلغ ، مادام هو فى حاجة
اليه .. ثم ، مقيمة المال وقد كتب « بول » اليها ! ..
وأسرعت الى البارون تريبه الخطاب ودموعها هامية .. ودعيا
الخالة ليزون ، وراح ثلاثتهم يقرأون العبارات التى كتبها
« بول » ، كلمة فكلمة ، ويناقشون معانيها .. وانحازت « جان »
الى صف ابنها ، وقد انتقلت من قنوط تام ، الى أمل ثمل :
« مادام قد كتب ، فهو لابد عائد إلينا ! »

وأجاب البارون فى هدوء : « لا تنسى انه تركنا من أجل
تلك المرأة .. فلا بد انه يقيم لها من الوزن فوق ما يقيم لنا ،
سيما وانه لم يتردد فى هجرنا من أجلها ! »

وفجأة ، شق قلب « جان » ألم مباغت ، فطيع ، فاذا
بكراهيتها لتلك المخلوقة التى سلبتها حب ابنها ، تستيقظ ..
واذا بغيره أموية ، هوجاء ، جامحة ، تستولى عليها .. وكانت
كل أفكارها حتى تلك اللحظة تدور حول « بول » ، فلم تكد تفكر
فى أن تلك المخلوقة مسئولة عما كان من عقوقه .. لكن ملاحظة
البارون أذكت فجأة وقدة « التنافس » ، وكشفت عما لتلك المرأة
من نفوذ خطر على « بول » ، فاذا جان تحس بأن معركة من
أجل القلب والسيادة على الشاب قد بدأت بينها وبين تلك
المرأة ! .. بل شعرت بأنها لو خيرت ، لا ثرت أن تفقد ابنها
على أن تشاركها فيه عشيقته .. ومالبث كل الفرح الذى كان
قد اعتراها ان زايلها !

وأرسلوا للشباب خمسة عشر ألف فرنك .. فلم يسمعوا
عنه بعد ذلك أى نبأ خلال خمسة أشهر .. جاء بعدها أحد

المحاميين ليسوى التركة التى خلفها « جوليان » ، فقدمت « جان » وأبوها حساباتهما اليه دون ماتذر ، بل انهما نزلا عما لهما من حق فى تقاضى النسبة المئوية من الدخل ، المخولة للام مابقيت على قيد الحياة ..

★ ★ ★

♦ وعاد « بول » الى باريس ليجد فى انتظاره ثروة تبلغ مائة وعشرين ألف فرنك ! .. وانقضت بعد ذلك ستة أشهر لم يكتب خلالها سوى أربعة خطابات ، ذكر فيها باقتضاب أنباء صحته ، وختم كلامها بعبارات فاترة أعرب فيها عن عواطف مصطنعة .. فقال فى أحد الخطابات : « اننى الآن صاحب عمل ، فقد حصلت على منصب فى « البورصة » .. وأمل أن أستطيع زيارة قصر « الحور » يوما يا أمى العزيزة ! » ولم يكتب قط كلمة عن عشيقته ، لكن صمته كان يوحى بمعان تفوق ما لو كان قد كتب عنها صفحات كاملة .. فقد كانت « جان » تحس خلف كلمات ابنها الباردة ، بتأثير تلك المرأة ! .. تأثير تلك الغريمة اليقظة ، التى لا سبيل الى زحزحتها .. غريمة الأمهات طرا ! .. وكان « النساك » الثلاثة يتباحثون فيما ينبغى انتهاجه لانقاذ « بول » ، لكنهم لم يصلوا الى قرار .. أيرحل أحدهم الى باريس ؟ .. ولكن ، ماجدوى هذا ؟ .. وكان البارون ينتهى الى القول : « لن يلبث الزمن أن يبلى حبه ، فيعود الينا من تلقاء نفسه ! » .. ولكن هذا القول لم يكن ليسرى عنهم ، بل أصبحت حياتهم تستحق الرثاء ..

وكانت « جان » و « ليزون » تتسللان معا الى الكنيسة ، دون علم البارون ! .. وانقضت فترة طويلة قبل أن يتلقوا أية أنباء .. وأخيرا ، أزعجهم - ذات صباح - خطاب مفعم باليأس ، جاء فيه :

« أمى العزيزة .. »
 « اننى مشرف على الهلاك ، فلم يعد أمامى سوى أن أطلق
 الرصاص على رأسى ، ما لم تخفى لنجدتى ! .. فلقد خانتنى
 مضاربة كنت أرجو أن أصيب منها أرباحا طائلة ، فأصبحت
 مدينا بخمسة وأربعين ألفا من الفرنكات ! ولسوف يؤدى
 عجزى عن الدفع الى خرابى ، وتلطىخ شرفى ، والقضاء على
 مستقبلى .. اننى هالك .. أكرر اننى أؤثر أن ألهب رأسى
 بالرصاص على أن أعيش فى هذا العار .. بل لقد كان من
 المحتمل أن أقدم قبل الآن على هذه النهاية ، لولا تشجيع امرأة
 لم أذكرها لك قط فى خطاباتى ، وان كانت بمثابة نورى
 الهادى .. »

« أبعث اليك يا أمى العزيزة بحبى .. ولعلها المرة الأخيرة .
 فوداعا »

« بول »

وكانت مع الرسالة حزمة من أوراق تضمنت بيانات تجارية
 تفصل تلك الكارثة .. فبادر البارون مجيبا - برجوع البريد -
 بأن كل شئ لن يلبث أن يسوى ، ثم رحل الى (الهافر)
 ليتحرى مدى النكبة . ورهن ضياعه من أجل المبلغ الذى أرسل
 الى « بول » ! .. فكتب الشاب ثلاث رسائل مفعمة بالشكر ،
 وبآيات الحب الجياش ، وأعلن قرب وصوله الى قصر « الحور »
 .. لكنه لم يصل قط !

* * *

♦ وانقضى عام كامل .. وفى الوقت الذى قررت فيه « جان »
 والبارون ان يقصدا الى باريس ، ليبدلا محاولة أخيرة
 لاعادته ، علما من رسالة مقتضبة انه عاد الى لندن ليؤلف شركة
 ملاحية تحت اسم « بول دي لامار وشركاؤه »
 وقال فيما كتب : « ثمة ثروة ترتقبنى من وراء هذا ،
 فاننى غير معرض لأى خطر ، ومن ثم تستطيعين أن تتصورى

مزايا المشروع .. ولسوف أكون قد جعلت لنفسى - حين أراك مرة أخرى - مكانا مرموقا فى الحياة ، فليس كالأعمال دافع يرفع من شأن الرجل فى أيامنا هذه »
 .. على انه لم تنقضى ثلاثة أشهر ، حتى أعلن افلاس شركة البواخر ، ورفع أمر المدير الى القضاء ، « لعدم انتظام دفاتر الشركة » ! ..

وأصيبت « جان » بنوبة من الانفعالات العصبية استمرت عدة ساعات ، ولزمت بعدها الفراش . ورحل البارون مرة أخرى الى (الهافر) ، ليستشير رجال القانون ، والمحامين ، ورجال الادارة .. فتبين ان عجز شركة « دى لامار » بلغ مائتين وخمسة وثلاثين ألفا من الفرنكات ! .. وعاد يرهن أملاكه مرة أخرى ، كما رهن القصر والمزرعتين .. وفيما



كان يتخذ الاجراءات النهائية بمكتب محاميه ، ذات مساء ، أصيب بنوبة قلبية . . فاستدعيت « جان » على عجل لتراه ، لكنه مات قبل أن تصل ! . . فعادت بجثته الى قصر « الحور » ، وقد اشتد بها الحزن حتى فاق نطاق القنوط ولوعة اليأس . . ورفض الاب « توليبياك » أن يتيح له جنازة كنسية ، رغم ضراعات المرأتين والحاحهما ، ومن ثم دفن البارون تحت جناح الظلام ، بلا مراسم دينية !

وسمع « بول » النبأ من أحد الذين كانوا يعملون في تصفية شركته ، وكان ما يزال مختبئا في أنجلترا ، فكتب يعتذر عن اضطرابه للبقاء بعيدا ، ذاكرا أن النعى نمت الى سمعه متأخرا ، بحيث لم تكن ثمة فسحة من الوقت ليعود . . واستطرد يقول : « والواقع اننى سأعود فى القريب وأراك يا أماء العزيرة ، بعد ان انتشلتينى من ضائقتى »

♦ وعاشت جان فى حال من الانطواء والهموم ، حتى خيف على عقلها ان يختبل . . واذا اقتربت نهاية الشتاء ، أصيبت الخالة ليزون - التى كانت قد بلغت الثامنة والستين - ببرد تطور الى التهاب رئوى . . ثم لفظت آخر انفاسها فى هدوء ودعة ، وهى تهمس : « جان » ياصغيرتى المسكينة . . لسوف أسأل الله أن يرأف بك »

وتبعت « جان » نعشها الى المقبرة ، وشهدت التراب يهال على تابوتها ، فتهافت على الارض وقد تملكته الرغبة فى أن تموت بدورها ، وأن تضع لعذابها وآلامها حدا ! . . بيد أن فلاحه قوية رفعتها بين ذراعيها ، وحملتها - كما لو كانت طفلا - الى خارج المقبرة ، وسارت بها الى القصر . . حتى اذا بلغته ، تركت « جان » - التى قضت الى جوار ليزون خمس ليال مسهدة - تلك القروية الغريبة تخلع عنها ثيابها وهى تعاملها فى كثير من الرفق المشوب بالحزم . . ومالبثت أن

استغرقت فى نعاس زاده الارهاق والعذاب عمقا وغزارة .. واستيقظت فى منتصف الليل ، فاذا بذباله مصباح تخفق على رف المدفأة .. وكانت ثمة امرأة مستغرقة فى النعاس وهى جالسة فى مقعد ذى مسندين .. ولم تعرفها « جان » ، فمالت على حافة الفراش لتنعم النظر متفرسة فى قسماتها التى كان لهب الفتيل - الطافى فوق الزيت فى كوب - يلقي عليها ضوءا معتما ..

ومع ذلك ، فقد خيل الى « جان » انها رأت هذا الوجه من قبل .. ولكن، متى ؟ وأين ؟ .. كانت المرأة تنام فى طمأنينة ودعة، وقد أسلمت رأسها الى احدى كتفيها .. وألقت قلنسوتها على الارض ، على مقربة منها .. وكانت عريضة المنكبين ، حاضرة اللون ، ربعة القوام ، بادية القوة ، وقد تدلت يداها الضخمتان الى جانبى المقعد .. وكان الشيب قد وخط شعرها .. وأخذت « جان » تحديق فيها بنظر لا يخيد ، وقد غام على ذهنها ذلك الدهول الحائر الذى يعقب فترة من نعاس محموم فرضه على الجسم تعب مبرح ..

أجل ، لقد رأت هذا الوجه من قبل ! .. أفكان ذلك فى الايام الخوالى ؟ .. أم منذ عهد قريب ؟ .. ولم تستطع أن تقطع بجواب ، فأثار الغموض انفعالها ، وضايقها .. ومالبثت أن رُحفت من السرير وتسلفت فى هدوء لتتأمل النائمة عن كُثب .. واقتربت منها على أطراف أصابع قدميها ، فاذا بها تتبين انها نفس المرأة التى حملتها من المقبرة وأسلمتها الى فراشها .. وتذكرت هذه الواقعة فى صورة مبهمة ، مختلطة .. ولكن ، أتراها التقت بالمرأة من قبل ، فى مرحلة أخرى من مراحل حياتها ؟ .. أو أنها انما خالت انها تعرفها من قبيل الوهم ؟ .. ثم ، كيف تراها ولجت غرفتها بعد خروجها منها ؟ .. ولماذا ؟

وفتحت المرأة عينيها ، فرأت « جان » ، واذا ذاك بادرت



قائمة فى عجلة .. ووقفت كل منهما تواجه الاخرى ، وقد تقارب جسماهما حتى تلامس صدراهما .. وغمغمت المرأة الغريبة : « ماذا ! .. هل قمت ؟ .. لسوف تصابين ببرد .. عودى الى سريرك فوراً ! »

فسألتها جان : « من أنت ؟ »

ولكن المرأة بسطت ذراعيها وأطبقتهما حولها فحملتها من الارض ونقلتها الى السرير حيث أرقدتها فى رفق على الاغطية ، ثم انحنت عليها ، وأخذت تبكى وهى تقبل وجنتيها ، وعينيها ، وشعرها .. بينما كانت دموعها تبلل الوسادة .. وهتفت : « يامولاتى المسكينة .. يا آنسة جان .. ألا تذكريننى ؟ »

وصرخت جان : « روزالى ! » ، ثم طوقت عنق المرأة

بذراعيها ، وأخذت تضمها اليها وتقبلها .. وانخرطت كلاهما
 فى البكاء برهة ، حتى كاد يتفطر قلباهما ، وقد تعلق كل
 بعنق الاخرى ، لا تقوى على الانفصال .. وكانت « روزالى »
 أول من تماكنت نفسها ، فقالت : « هيا الزمى الفراش حتى
 لاتصابى ببرد » .. وأخذت تسوى الفراش ، وتحكم الاغطية
 حول جسد السيدة التى كانت مولاتها فيما مضى ، وتعديل
 الوسادة تحت رأسها .. غير ان « جان » استمرت فى النحيب ،
 اذ استيقظت فى نفسها الذكريات القديمة .. وأخيرا تساءلت :
 « كيف جئت يا روزالى ؟ »

فأجابت المرأة : « أو كنت تظنين اننى أتركك وحيدة ؟ »
 قالت جان : « الا أوقدى شمعة حتى أستطيع أن أراك ! »
 وبعد أن أشعلت « روزالى » شمعة على مقربة من الفراش ،
 أخذت كل من المرأتين تحلق فى الاخرى ، دون أن تنبس
 ببنت شفة . ومالبثت « جان » أن تناولت يد خادمتها وقالت :
 « ما كان بوسعى أن أعرفك يا روزالى ، فقد تغيرت كثيرا ..
 وان كنت أقل منى تغيرا ! »

فحدقت « روزالى » فى المرأة الذابلة ، ذات الشعر الاثيب ،
 التى كانت حين فارقتها شابة جميلة .. وأجابت : « أجل ،
 لقد تغيرت ياسيدة جان .. تغيرت اكثر مما ينبغى .. ولكن ،
 تذكرى ان كلا منا لم تر الاخرى منذ أربع وعشرين سنة ! »
 وأمسكتا برهة ، مخلدتين للتفكير ، ثم قالت جان أخيرا ،
 متلثمة : « لعلك كنت سعيدة ، على الأقل ؟ » .. فبادرت
 « روزالى » قائلة فى اضطراب ، وقد خشيت أن توقظ فى فؤاد
 مولاتها بعض الالم : « كيف ؟ .. أجل .. أجل ياسيدتى ..
 ليس لى أن أشكو .. لا ، لا ! .. كنت أسعد منك ، وما
 كنت آسفة الا على شيء واحد ، هو اننى اضطررت الى مبارخة
 هذا المكان ! » .. وأمسكت فجأة ، وقد أفرعها ماقالته عفوا
 .. ولكن « جان » أجابت فى رفق : « أجل ، يا روزالى .. »

ماكل مايشتهيئه المرء يدركه .. أعتقد انك انت الاخرى اصبحت
أرملة ؟ .. ثم أردفت بصوت مرتعش : « هل لك أولاد
آخرون .. غير .. ؟ »
- لا ، يا سيدتى ..

- وابنك .. ماذا جرى له ؟ .. هل أنت راضية عنه ؟
- أجل ياسيدتى ، انه ولد طيب ، ومجتهد .. لقد تزوج
منذ سنتة أشهر ، وسيتولى أمر مزرعتى بعد اذ جئت لأمكث
معك

فهمست « جان » وهى ترتعش لفوران عواطفها : « اذن
فسوف تمكثين معى ياروزالى ؟ »
وبادرت روزالى مجيبة : « طبعا ياسيدتى .. لقد دبرت
كل أمورى على هذا الاساس »

★ ★ ★

♦ ولادتنا بالصمت برهة .. وظلت « جان » - على الرغم
من نفسها - توازن بين حياتيهما ، فى غير ما سخيمة أو حسد ،
اذ كانت قد راضت نفسها على تحمل قسوة القدر .. ومالبثت
أن قطعت حبل الصمت متسائلة : « هل كان زوجك كريما
معك ؟ »

- أجل .. كان رجلا صالحا ياسيدتى .. دؤوبا على العمل ،
قديرا على ادخار المال .. وقد مات بداء الصدر
فجلست « جان » فى السرير ، بادية الرغبة فى أن تستمع
الى كل شيء .. ثم قالت : « حدثينى ياروزالى عن كل حياتك
.. لسوف يخفف هذا عنى اليوم »

فقربت المرأة مقعدها الى السرير ، وشرعت تتحدث عن
نفسها ، وعن دارها ، وعن كل مايحيط بها .. مفصلة فى
تحمس تلك التفصيلات الحبيبة الى أهل الريف ، واصفة
مزرعتها ، ضاحكة لبعض الذكريات ، وهى ترفع صوتها كلما

أوغلت فى الحديث ، كما تفعل المرأة التى اعتادت أن تأمر وتنهى .. ثم قالت أخيرا : « أواه ، اننى أملك ثروة صغيرة لا بأس بها ، فلا حاجة بى الى أن أخشى المستقبل » .. ثم اعتراها الحياء مرة أخرى ، فخفضت من صوتها وهى تستدرك : « ومع ذلك ، فأنا مدينة لك ياسيدتى بكل هذا .. ولست ارتقب منك أجرا .. لا ، بالتأكيد ! لا بالتأكيد ! .. »

فأجابت جان : « ما أراك تتصورين اننى أقبل أن تعمل من أجلى بغير مقابل ؟ »

— بلى .. بالتأكيد ياسيدتى .. نقود .. أقبل أن تعطينى نقودا ؟ .. كيف ، وأنا أكاد أملك قدر ما تملكين ؟ .. أوتعرفين ماتبقى لك بعد كل قروضك ورهونك والفوائد التى لم تدفع قط ، ومن ثم راحت تتضاعف من فترة الى فترة ؟ .. هل تعرفين ؟ .. لا ، لست تعرفين .. أؤكد انك لم تعودى تملكين دخلا قدره عشرة آلاف فرنك .. بل انه لا يبلغ هذا القدر .. أفندركين هذا ؟ .. على اننى سأتولى تدبير شئونك الآن وبأسرع ما أستطيع ..

وكان صوتها قد ارتفع فى اباء ، مستنكرة ان هذه الامور قد أهملت حتى أصبح الحراب يتهدد جان .. وشاعت فى وجه سيدتها — وهى تتكلم — ابتسامة واهنة بعثتها المشاعر التى اختلجت فى نفسها .. فصاحت « روزالى » :

— ما ينبغى أن تضحكى لكل هذا يا سيدتى ، اذ ليست للمرء قيمة بغير المال !

فتناولت جان يدى روزالى بين راحتها فترة طويلة ، ثم أطلقت لسانها بالفكرة التى طالما تملكت ذهنها : « أواه ! .. اننى لم أصب فى حياتى حظا .. كان كل شيء يمضى فى غير صالحى .. كان القدر شديد القسوة على ! »

فهزت «روزالى» رأسها قائلة : « ما هكذا ينبغي أن تتكلمى
ياسيدتى .. لا ، لا يجب .. كل ما فى الامر انك تزوجت
زوجة غير سعيدة .. فالحق ان الزواج بالطريقة التى تم بها
زواجك ، ودون ما معرفة وثيقة بالخطيب ، لا يمكن أن يجدى .. »
واستأنفتا الحديث بعد ذلك ، كصديقتين حميمتين ..
حتى أشرقت الشمس ، وهما لا تزالان تتكلمان ..



الفصل الثاني عشر

♦ تولت «روزالى» فى خلال الايام الثمانية التالية ، ادارة شئون البيت • وراضت « جان » نفسها على تقبل كل شيء ، وعلى اطاعتها وترقب نتيجة تصرفاتها • واذ استوت على ساقبيها ، ضعيفة ، كليلية ، أخذت تقوم بنزهات قصيرة ، مستندة الى ذراع « روزالى » ، كما كانت أمها تفعل • • وكانت الخادم تؤنبها ، وتسرى عنها - فى كلمات قاطعة ولكنها رقيقة - وتعاملها كما لو كانت طفلا عليلا • •

: وكاننا لا تنفكان تتحدثان عن الايام الغابرة ، والعبرات تخنق صوت « جان » ، و «روزالى» تتكلم بتلك اللهجة الجوفاء التى اعتادتها الفلاحات • • وأشارت الخادم مرارا الى فوائد

القروض التى حان موعد تسديدها .. ومالبثت أن أصرت على أن تسلم إليها « جان » الاوراق التى كانت تخفيها عنها استحياء من مسلك « بول » ..

وظلت « روزالى » تتردد على (فيكامب) كل يوم ، لمدة أسبوع ، تستشير محاميا كانت تعرفه ، فى المعاملات المالية التى لم تكن تفقهها .. ومالبثت ذات مساء ، ان جلست الى جوار سيدتها ، بعد أن اسلمتها للفراش ، وقالت لها : « اما وقد اطمأنتت الى فراشك ياسيدتى ، فتعالى نتحدث فى الناحية المادية .. »

ومضت تشرح لجان الموقف بأسره ، وأفهمتها ان كل ما سيتبقى لها بعد تسوية الديون ، لن يزيد على سبعة أو ثمانية آلاف من الفرنكات ! .. فأجابت جان : « لا حيلة فى الامر يا « روزالى » ! .. ثم ان هذا المبلغ سيكون كافيا ، اذ أحس أننى لن أعيش طويلا ! »

وأثار هذا الرد حنق روزالى فقالت : « هبى أن الامر كذلك ياسيدتى ، ولكن .. ماذا يكون من أمر السيد بول ؟ .. أليس فى نيتك ان تخلفى له شيئا ؟ » .. فارتجفت جان ، وقالت : « أرجو أن لاتذكره لى .. ان مجرد التفكير فيه يعذبنى كثيرا »

- على العكس .. بل يجب أن أحدثك عنه .. انك لا تتصرفين تصرفا معقولا ياسيدة جان .. قد يكون الشاب قاسدا الآن ، ولكن لن يظل هكذا دائما .. لسوف يتزوج يوما وينجب أطفالا ، فلا بد من أن يكون لديه مال يعولهم به .. أليس كذلك ؟ .. اذن ، فاصفى لى .. يجب أن تبغى ضيعة أشجار الحور !

فاستوت « جان » جالسة فى السرير بانفعال ، وقالت : « أبيع ضيعة الحور ! .. أو اه ! .. أبدا لن أبيعها .. قط ! » ولكن روزالى لم تكن بالتى تتزحزح عن رأيها ، فقالت :

« انما أنصحك بأن تبیی الضیعة یاسیدتی ، لأنه لا بد لك من ذلك ! »

♦ ومضت تشرح لها خططها ، وتقديراتها ، وحججها .
فهما اذا باعنا قصر « الحور » والمزرعتین الملحقین به الى المشتري الذي وفقت اليه ، فسیتسنى لهما الاحتفاظ بالضیعة التي بقيت لجان فی « سان لیومار » ، وهي كفیلة - بعد سداد كل الرهون - بأن تدر دخلا قدره ثمانية آلاف وثلاثمائة من الفرنكات ، تخصصان منها ألفا وثلاثمائة للاصلاحات والنفقات اللازمة للمزارع ، فتبقى سبعة آلاف من الفرنكات ، تؤخذ منها خمسة آلاف لنفقات المعیشة ، ويدخر الباقي للطوارئ .
واستأنفت روزالی حديثها قائلة : « أما كل الاملاك الاخری ، فقد ضاعت . . لم یبق شیء منها . . ولسوف أحتفظ بمفتاح الخزانة . . أما السيد « بول » فلن ینال فرنكا آخر . . ولو واحدا . . فانه لن یرعوی عن ابتزاز آخر فرنك لديك ! »
وتمتت جان التي كانت تبکی فی صمت : « أجل ، ولكن . . هبی انه لا یجد المال الذي یسد به رmqه ؟ »

- حسنا . . اذا كان جائعا . . فلیعد الى هنا ، فلسوف یجد لدينا دائما سریرا ، وغذاء . . أو تقنین انه كان یقدم على تلك الحماقات لو لم تمنحیه مالا من البداية ؟

- ولكنه كان مدینا ، وشرفه مهددا مدى الحیاة !

- أفترین اذا ضاعت كل نقودك ، سیرده ذلك عن حماقاته؟
. . لقد دفعت له من قبل ، لا بأس فی ذلك . . غیر انك لن تدفعی ثانية . . أوكد لك . . والآن ، سعدت مساء یاسیدتی وغادرت الحجرة . . ولم یغمض لجان جفن بعد انصرافها ، فقد أوشکت فكرة بیع الضیعة ، ومفارقة الدار التي قضت فیها حیاتها ، ان تدفعها الى الجنون . .
وفی الصباح التالي ، قالت لروزالی اذ دخلت المخدع :

« لن أقوى على مغادرة هذا المكان ياروزالى ! »
 فاشتد بالحادمة الغضب ، وقالت : « بل انك مضطرة
 ياسيدتى .. ولن يلبث المحامى أن يعود بعد برهة مع الرجل
 الذى يرغب فى شراء القصر .. فاذا لم تبيعيه ، فلن تحصل
 على فرنك واحد لمدة أربع سنوات ! »
 وبهتت « جان » لفرط الاسى ، فأخذت تردد : « لا أستطيع
 أبدا .. لن أقوى قط ! »

وان هى الا ساعة ، حتى حمل اليها ساعى البريد خطابا
 من « بول » طلب فيه قرضا قدره عشرة آلاف من الفرنكات ..
 وبادرت « جان » تستشير « روزالى » وهى فى جزع ، ولكن
 هذه بسطت راحتيها وهتفت قائلة : « ماذا قلت لك ياسيدتى؟
 .. هاك مصداق قولى .. لقد كنتما مسوقين الى الخراب لو لم
 أخف الى نجدتك »
 وانصاعت « جان » لرغبة خادمتها ، فكتبت لابنها الرسالة
 التالية :

« يابنى العزيز : لم يعد فى وسعى أن أفعل شيئا من أجلك،
 فقد أفلسمتنى، حتى أصبحت مضطرة لأن أبيع ضيعة «أشجار
 الخور» .. ولكن ، لا تنس قط انك ستجد بيتا تعيش فيه مع
 أمك العجوز التى جلبت عليها كل هذا الالم »

« جان »

وعندما أقبل المحامى مع مسيو « جوفران » - وكان صاحب
 مصنع لتكرير السكر ، ثم اعتزل العمل - استقبلت « جان »
 السيدين بنفسها ، وجاست بهما خلال القصر ..

♦ ولم ينقض شهر حتى كانت قد وقعت عقد البيع ،
 واهتدت فى الوقت ذاته الى بيت صغير بالقرب من (جوديرفيل)
 على الطريق المؤدى الى (مونفيليه) ، فى ضاحية (باتفيل)
 الريفية ..

وفى الطريق الذى كانت أمها تتنزه فيه ، سارت حتى هبط
المساء ، وقد استولى الهم على قلبها وعقلها ، فأخذت تخاطب
الأشجار ، والافق ، والمقعد القائم تحت شجرة الدلب ، وكل
شئ كانت تألفه .. أخذت تودع فى أسمى - الحميلة ، والتل
الصغير المواجه للبستان الذى كثيرا ما جلست فيه ، والذى
شاهدت منه الكونت « دى فورفى » فى ذلك اليوم المشئوم
الذى مات فيه « جوليان » .. وشجرة عجوزا مهملة اعتادت أن
تعتمد اليها .. والحديقة الحبيبة بأكملها .. واضطرت « روزالى »
فى النهاية الى أن تخرج اليها لتعود بها ..

وكان فى انتظارهما لدى باب القصر فلاح فى الخامسة
والعشرين من عمره ، حيا « جان » فى مودة كأنه يعرفها منذ
سنوات ، وقال : « يوم سعيد ياسيدة جان » أنت بخير ؟
.. لقد كلفتنى أمى ان اعنى بمسألة نقل متاعك ، وأحب
أن أعرف ما الذى تودين ان تأخذى منه ، لأننى سأنقله على
دفعات صغيرة ، حتى لا يتعطل عملى فى المزرعة .. »

كان هذا الفتى ابن خادمته .. ابن « جوليان » ، وأخا
« بول » ! .. وخيل لجان ان قلبها كاد يكف عن
الوجيب .. ولكنها الى جانب هذا أحست بميل الى
أن تقبل الشاب .. وأخذت تتفرس فيه ، تحالول
أن تكشف ثمة وجه للشبه بينه وبين زوجها ، أو ابنها
.. كان متورد البشرة ، قويا ، أزرق العينين ، أصفر الشعر
.. كأمه .. ومع ذلك فقد كان يبدو كجوليان ؟ .. أما كيف ،
فهذا ما عر عليها أن تدركه .. كان ثمة شئ فى وجهه - اجمالا -
يذكرها بأبيه ! .. وبعد هنيهة تابع الشاب حديثه قائلا :
« أكون جد شاكر لو استطعت أن ترينى الاشياء الآن »

غير ان « جان » لم تكن قد استقرت على ماتأخذه معها ،
اذ كان بيتها الجديد صغيرا ، ومن ثم سألتها ان يعود فى
نهاية الاسبوع .. ومالبثت فكرة الانتقال أن أتاحت لها

ما يشغل بالها ، ويدخل بعض التغيير على حياتها المتواترة ، الرتيبة . فأخذت تنتقل من حجرة الى أخرى ، تبحث عما يرتبط في ذهنها بالاحداث من قطع الاثاث . . . القطع التي كانت تؤلف جزءا من حياتها ، بل من كيائها ، اذ عرفت منذ الطفولة ، وعلقت بها ذكريات أفراحها وأحزانها . . . قطع كانت كالتواريخ في سياق حياتها ، أو كالرفاق الجامدة الصماء للساعات البهيجة والساعات الحزينة . . . قطع اكتهلت معها ، فأصابها البلى والتفكك !

وأخذت تختار القطع واحدة فواحدة . . . وكثيرا ما كانت تتردد وتغير رأيها بين دقيقة وأخرى ، وتتأرجح في الاختيار بين مقعدين ، أو بين مكتب صغير قديم ومنضدة لأعمال التطريز . . . وكانت تفتح جميع الادراج محاولة أن تتذكر أحداث الماضي ، ثم لا تلبث في النهاية أن تقول : « أجل ، سأخذ هذه » ، فيرفع الشيء وينقل الى الطابق السفلي ، ليوضع في قاعة المائدة . . . ورغبت في أن تحتفظ بغرفة نومها كاملة : السرير ، والساعة ، والستائر . . . وكل قطعة في الواقع !

واختارت عددا من مقاعد « الصالون » التي كانت مكسوة بقماش تحمل رسومه ، قصصا كانت تبث اعجابها وهي طفلة : مثل « الثعلب والبجعة » ، و « الثعلب والغراب » ، و « النملة والجرادة » ، و « أبو قردان الحزين » . . . حتى اذا تفقدت كل ركن من المنزل ، واقترب موعد رحيلها ، صعدت يوما الى مخزن الاثاث في أعلى القصر ، ووقفت عند مدخله مذهولة اذ صافحت نظرها اكداس من الاشياء بعضها مهشم، وبعضها لم يصبه سوى بعض القذارة لكنه أقصى في المخزن لانه لم يعد جذابا ، ولأن قطعا جديدة حلت محله . . . وتبينت «جان» وسط الركام أشياء اختفت عن بصرها منذ عهد بعيد فلم تظن لغيابها . . . أشياء تافهة ظلت تحيط بها خمس عشرة سنة ،

دون أن تنتبه الى وجودها ، ولكنها أخذت تذكرها الآن بجلاء حين رأتها الى جوار الاشياء الاخرى التى كانت تألفها ، فاذا بها تتخذ فجأة قيمة الشهود المنسيين ، والاصدقاء الذين طال افتقادهم ! .. واذا بها توحى الى « جان » بما يوحى به بعض الناس الذين قد يلتقى المرء بهم مرارا دون أن يكشف شيئا مما يدور فى أعماقهم من افكار وخواطر ، ثم اذا بهم ذات ليلة ، ودون ما انذار ، ينطلقون فى الكلام عن أنفسهم ، فيكشفون لنا - ونحن فى غمرة العجب الداهل - أعماق الأسرار الخفية فى نفوسهم !

وأخذت تتنقل من شيء الى آخر ، ممسكة أنفاسها لفرط الانفعال ، وهى تهمس لنفسها : « يا للعجب ! .. لقد حطمت هذا الكوب ذات مساء ، قبيل زواجى بأيام قلائل .. أواه ! .. ها هو ذا مصباح أمى الصغير ، والعصا التى كسرهما أبى يوم حاول أن يفتح البوابة الخشبية التى انتفشت بماء المطر فتعذر فتحها » !

وكانت هناك أيضا أشياء كثيرة لم تتعرف عليها ، لأنها كانت تمت الى أجدادها .. أشياء كانت تبدو غير مناسبة للمكان ولا للزمان ، فهى تجهل تاريخها ، بل ان أحدا لم ير أولئك الذين اختاروها ، ولا الذين ابتاعوها ، ولا الذين امتلكوها ، ولا الذين احبوها .. ولا عرف أحد الايدى التى تحسستها فى شغف ، ولا الاعين التى تأملتها فى اغتباط .. وأحسست « جان » بمتعة فى تحسس تلك المخلفات التى كساها الغبار ، وفى فحصها ، فطال بقاؤها فى المخزن العجيب ، تحت الضوء الخافت الذى كان يتسلل خلال زجاج السقف .. وعنيت بفحص بعض مقاعد ذات ثلاث سيقان ، عسى ان تتذكر شيئا عنها .. ومدفأة نحاسية للسريير ، ومدفأة للقدمين مقعرة خيل اليها انها تبدو مألوفة لعينيها ، وعددا من متاع المطبخ المهشم ..

وماليت أن أعدت قائمة بما شئت أن تأخذ من هذه الأشياء ، وهبطت لتوفد « روزالى » لجمعها ، لكن الخادم المغيظة أبّت أن تنقل هذه الأشياء من « سقط المتاع » .. بيد أن « جان » - التى لم يكن قد بقى لها شئ من الإرادة - ظلت فى هذه المرة على إصرارها ، فلم يكن بد من تنفيذ أمرها ..

★ ★ ★

♦ وذات صباح ، أقبل المزارع الشاب « دنيس ليكوك » - ابن جوليان - يقود عربة ، لينقل الدفعة الأولى . ورافقته « روزالى » لتشرف على نقل المتاع من العربة الى البيت الجديد ، وترتيبه .. وما أن خلت « جان » الى نفسها ، حتى راحت تطوف بحجرات القصر ، فى نوبة من الألم اليائس ، تقبل فى حب خالص تلك الأشياء التى قدر لها أن تخلفها وراءها .. الطيور البيضاء الكبيرة التى زينت بها كسوة الاثاث بقاعة الجلوس ، والشمعدانات العتيقة .. وكل شئ كانت تصادفه وأخذت تهرع من غرفة الى أخرى ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وعقلها يدور كالدوامة .. ثم خرجت لتلقى نظرة أخيرة على المحيط ..

كان شهر سبتمبر قد أوشك على نهايته ، وقد خيمت على الأرض سحابة قائمة ، مثقلة .. وكانت قمم الامواج المصفرة تمتد الى ماوراء مرمى البصر .. ووقفت « جان » طويلا على التل المشرف على البحر تقلب فى ذهنها الافكار المعتمدة ، حتى اذا هبط الظلام ، عادت الى القصر بعد أن عانت فى ذلك اليوم من العذاب مالم تعانه فى أى من محنها السابقة .. وألقت « روزالى » قد عادت ، وجلست تنتظرها .. كانت مغتبطة بالمسكن الجديد ، فراحت تعلن انه أبهج بكثير من هذا الصرح الضخم الذى لم يكن يمتاز بشئ .. بل ولم يكن مشيدا على حافة الطريق . لكن « جان » ظلت مع ذلك تبكى طيلة الليل .

ومنذ علم الفلاحون أن القصر قد بيع ، لم يعودوا يبدون لجان سوى الاحترام الذى يفرضه عليهم مركزها فحسب . كانوا فيما بينهم يطلقون عليها « المرأة المجنونة » ، دون أن يدروا حقيقة الباعث لذلك ، وأن لم يكن ثمة شك فى ان السبب كان يرجع الى أنهم حدسوا بغريزتهم الفطرية ما أصاب أحاسيسها من اعتلال دائم ، وما كان يكتنف أفكارها من مبالغة ، وما كانت تعانيه نفسها المسكينة ، المعذبة ، من اضطرابات . . . وفى اليوم السابق لرحيلها ، ساقتها قدمهاها مصادفة الى الحظائر ، فترامت الى أذنيها همهمة خافتة ، لم تلبث أن تبينت انها صادرة من « سلوتر » . . الكلب الذى لم تذكره منذ شهور . وكان مكوما على فراش من القش ، وقد أصابه العمى والشلل ، وشيخوخة غير مألوفة فى الكلاب . . لا تعنى به سوى الطاهية « لوديفين » التى لم تنسه . واحتوته « جان » بين ذراعيها ، فقبلته ، ثم حملته الى الدار . . وكان ثقيلًا ، لا يكاد يقف على سيقانه المتيبسة ، وينبح كما لو كان كلبًا من الذمى التى يلهو بها الاطفال . .

♦ وأخيرا ، بزغ فجر اليوم الاخير . . وكانت « جان » قد نامت ليلتها فى مخدع « جوليان » القديم ، لان غرفتها كانت قد أخليت من الاثاث . . وغادرت الفراش منهوكة ، لاهثة الانفاس - وكأنها قضت الليل تجرى ! - فاذا العربة تقف فى ساحة القصر ، وقد نقلت اليها الحقائب وماتبقى من متاع . . بينما أعدت عربة صغيرة ذات عجلتين فى مؤخرة القصر للسيدة والخادم . .

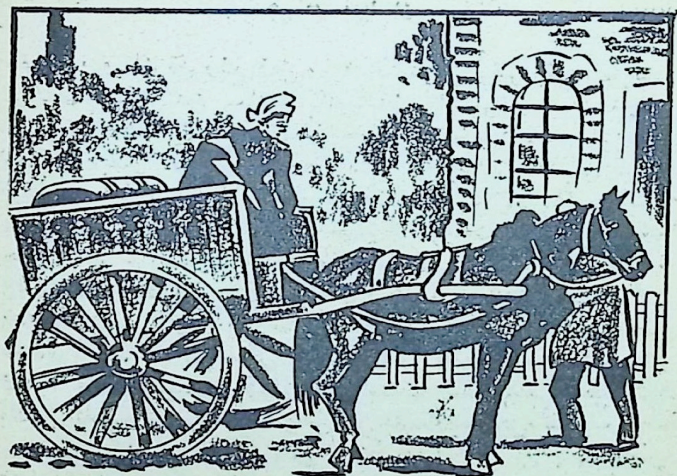
وقدر أن يبقى « سيمون » العجوز و « لوديفين » فى القصر حتى يحل فيه المالك الجديد ، ثم يقيما مع بعض أقاربهما ، اذ كانت « جان » قد منحتهما معاشا بسيطا ، فضلا عن أنهما كانا قد أدجرا بعض المال . . وكانت السن قد تقدمت بهما

كثيرا ، فأصبحا ثرثارين ، لا نفع منهما .. أما « ماريوس » فكان قد تزوج وبارح القصر منذ أمد طويل .. وبدأت السماء تمطر حوالى الساعة الثامنة .. رذاذا خفيفا، مثلوجا ، تسوقه ريح واهنة من المحيط ، فاضطروا الى نشر بعض الاغطية الواقية فوق العربة .. وكانت أوراق الشجر قد أخذت تتساقط ..

وكان ثمة قدحان من القهوة على مائدة المطبخ ، فجلست « جان » أمام قدحها ، وشرعت ترشف القهوة فى تؤدة .. ومالبثت بعد برهة أن نهضت قائلة : « هيا بنا ! » . ولبست قبعتها ووشاحها ، وبينما كانت « روزالى » تحكم المعطف الواقى حول جسم سيدتها، قالت هذه : « هل تذكرين ياروزالى ، كيف كانت تمطر حين غادرنا (روان) قادمين الى هنا ؟ » وفجأة ، تذاعت قواها ، فانهارت فى شبه نوبة عصبية .. وقد تقلصت يداها فوق قلبها .. وظلت ساعة راقدة كالهيئة .. ثم فتحت عينيها ، أخيرا ، وأخذت تنشج بالبكاء .. واذا انهمرت دموعها ، عاودها الهدوء تدريجا . بيد أن النوبة خلفتها فى ضعف لم تكد معه تقوى على الوقوف . وخشيت « روزالى » أن تفاجئها نوبة أخرى ، اذا هى لم ترحل عن القصر فورا ، فاستدعت ابنها ، وحملا « جان » متعاونين الى العربة ، فأجلساها على المقعد الجلدى .. وصعدت « روزالى » الى جوارها ، فنشرت على ركبتى « جان » بطانية ، وعلى كتفيها عباءة ثقيلة .. ثم فتحت مظلة فوق رأسيهما وقالت : « عجل يادنييس .. يجب أن نرحل فورا » . فصعد الشاب الى جوار أمه ، وجلس واحدى ساقيه مدلاة خارج العربة ، اذ لم يكن ثمة فراغ كاف له بداخلها . ثم أطلق العنان للجواد ، فاندفع مسرعا فى خطوات وثابة جعلت تهز المرأتين .. حتى اذا انصرفوا نحو القرية ، أبصروا بالأب « توليبياك » يذرع الطريق جيئة وذهابا ، وقد لاح عليه أنه كان فى انتظار أن يشيعهم بنظرة

أخيرة • وكان قد رفع ذيل ثوبه الكهنوتي ليقيه بلل الطريق، فكشف بذلك عن ساقيه النحيلتين المكسوتين بجوربين اسودين ، واللتين تنتهيان في حذاءين ضخمين ، موحلين • وما أن ابصر العربية مقبلة ، حتى تنحى الى جانب الطريق ليفسحه لها ، بينما أخذت « روزالى » - التى علمت بكل ما اقترفه - تتمتم فى سخط حائق : « يالك من خنزير ! • حلوف » ، ثم أمسكت بيد ابنها وصاحت : « ألسعه بسوطك ! • وفيما كانوا يمرّون بالقس ، مال « دنيس » فجأة ، فانحرفت احدى عجلتي العربية الى حفرة عميقة • وكانوا منطلقين بأقصى سرعة ، فاندفع الرشاش يغطى القس بالوحل من رأسه الى قدميه • واغتبطت روزالى ، فالتفتت خلفها وهزت قبضتها للقس الذى وقف يمسح الوحل عن نفسه بمنديل كبير • • ومضت خمس دقائق وهم منطلقون فى صمت ، وفجأة ، قالت « جان » : « لقد نسينا سلوتر ! » ، فأوقف دنيس العربية، وأسلم أمه العنان ، وقفز من مكانه • • ومالبث أن عاد بالكلب الهزيل ، المشوه ، الأجرب ، بين ذراعيه ، فوضعه فى العربية بين المرأتين • •





الفصل الثالث عشر

♦ **وقفت** العربـة بعد سـاعتين أمام بيت صغير من الطوب، قام على حافة طريق ممتد خلال بستان « كمثرى » ٠٠ وفي كل ركن من الحديقة ، كانت ثمة خـميلة كسيت بنباتات متسلقة، مزهرة ٠٠ وكانت هذه الحديقة مخصصة لاستنبات الخضر ، وقد قسمت الى أحواض صغيرة ، تتخللها دروب ضيقة حفت بها أشجار الفاكهة ٠٠ وكان يحيط بالبستان والحديقة سياج من شجيرات كثيفة ، يفصله عن المزرعة المجاورة حقل ٠٠ وعلى بعد نحو خمسة وعشرين مترا ، كان ثمة حانوت للحدادة ٠٠ وكانت أقرب الدور تقوم على مسافة تبعد نحو كيلومتر ونصف ٠٠ وخلفها ينبسط سهل « كو » ، تتناثر

فى رحابه المزارع ، التى كادت تختفى فى أحضان أربعة صفوف مزدوجة من الاشجار الضخمة المحيطة بالبساتين . . .

وودت « جان » أن تنام فور وصولهم لتستجم ، ولكن « روزالى » خشيت عليها من أن تفرق فى أفكارها ، فلم تدعها تنام . . . وكان النجار قد حضر من (جوديرفيل) ليساعد على تنسيق الأشياء ، فشرعوا فوراً فى ترتيب ماكان قد وصل من أثاث ، ريثما تصل الدفعة الاخيرة . . . ومالبثت العربّة أن وصلت بعد ساعة ، فأفرغت حمولتها تحت المطر . وما أن هبط المساء ، حتى كان البيت فى فوضى ، وقد تراكمت الاشياء فى كل غرفة كيفما اتفق . . . وكانت «جان» منهوكة القوى ، فاستغرقت فى النوم بمجرد أن لامس رأسها الوسادة !

وكان العمل فى الايام التالية من الكثرة بحيث لم تجد « جان » وقتاً للتفكير . . . بل انها ، فى الواقع ، وجدت بعض المتعة فى تنسيق بيتها الجديد ، اذ كانت طيلة الوقت الذى قضته فى العمل ، لا تنفك تتصور ان «بول» سيأتى يوماً ليقم فيه . . . وعلقت ستائر غرفة نومها القديمة فى قاعة الطعام ، التى رؤى أن تؤدى أيضاً مهمة غرفة الجلوس . وتحملت «جان» مزيداً من العناية فى تأثيث احدى غرف الطابق العلوى ، بعناية خاصة . . . تلك كانت غرفة أطلقت عليها اسم «غرفة الكتكوت»!

. . . أما الغرفة الاخرى فى الطابق ، فقد استأثرت بها لنفسها ، فى حين رؤى أن تنام «روزالى» فى الحجرة القائمة تحت برج المنزل ، فى الطابق العلوى . . . وازدان البيت فى انسجام ينم عن ذوق رفيع ، فبدا جميلاً . . . وسعدت «جان» به فى البداية ، لكنها مالبثت أن عادت تعاني شعوراً ضايقها . . . شعوراً بأن ثمة شيئاً تفتقده . . . لكنها لم تدرك كنهه !

وأقبل ذات صباح أحد كتبة المحامى - من فيكامب - يحمل ثلاثة آلاف وستمائة فرنك دفعها أحد تجار الاثاث ثمنالرياش قصر « الحور » ، فسرت « جان » بالنقود ، وما أن بارح الكاتب

الدار ، حتى ارتدت قبعتها وهرعت الى « جوديرفيل » لترسل هذا المبلغ الذى هبط عليها من السماء ، الى « بول » ، بأسرع ماوسعها ! .. ولكنها صادفت فى طريقها « روزالى » عائدة من السوق ، فحدست الخادم أن شيئا قد حدث ، وان لم تدركه .. غير أنها سرعان ماعرفته ، لأن « جان » لم تكتف دونها سرا ! واذ ذاك ، وضعت « روزالى » السلة على الارض، وأسندت يديها الى خصرتها ، وراحت تؤنب « جان » بأعلى صوتها .. ثم أمسكت ذراع « جان » بيمنها ، بينما حملت السلة بيسراها ، وعادت الى البيت ساخطة . وما أن أصبحت داخل الدار ، حتى طلبت من « جان » أن تسلمها النقود ، فأعطتها اياها جميعا اللهم الا ستمائة فرنك تكتمت أمرها . بيد ان « روزالى » ظلت على ارتيابها ، فسرعان ماكشفت هذه الخدعة ، وحملت « جان » على أن تسلمها هذا المبلغ بدوره . ومالبثت أن تساهلت ، فسمحت بأن يرسل هذا المبلغ الصغير الى « بول » ، الذى كتب لأمه بعد بضعة أيام يشكرها ، ويقول فى رسالته : « لقد أسديت الى صنيعا عظيما يا أماه ، لان حالنا انحدرت الى فقر مدقع تقريبا ! »

♦ ولم ترتج « جان » الى المعيشة فى (باتفيل) ، فاضطرب تنفسها ، وازداد عن ذى قبل شعورها بأنها منسية ، منبوذة .. وكثيرا ماكانت تتمشى الى (فرنوى) ، ثم تعود عن طريق (تروا مار) ، ولكنها لا تكاد تبلغ الدار ، حتى تهم بالخروج ثانية ، وكأنها غفلت عن الوجهة التى كانت تسعى اليها . وتكرر هذا العمل مرارا ، دون أن تفقه ماكان يداعب خيالها ، الى أن تمتمت ذات مساء - عفوا ، وعن غير قصد - بعبارة ، سرعان ما أرشدتها الى سر حيرتها .. اذ قالت وهى تجلس الى مائدة العشاء : « لشد ما أتوق الى رؤية المحيط ثانية ! » . البحر ! .. كان هذا هو الشيء الذى افتقدته ! .. فلقد ظل

يجاورها خمسا وعشرين سنة ، ذلك البحر الرائع ، الهدار ،
 يملوحته التي تخالط الهواء ، وبأنوائه .. البحر الذي كانت
 تراه من نافذتها في ضيعة أشجار « الحور » .. وتستنشق
 عبيره ليل نهار ، والذي اعتادت ان تحبه كما لو كان انسانا !
 كذلك كان « سلوتر » قلقا ، فما ان وصل الى الدار الجديدة
 لأول مرة ، حتى زحف تحت صوان بالمطبخ ، فلم يستطع أحد
 أن يغريه على الخروج .. ثم اعتاد أن يرقد هناك طيلة النهار ،
 لا يتحرك الا لينقلب على جانبه وهو يئن بصوت مكتوم .. وما
 أن يهبط المساء ، حتى يجر نفسه نحو الباب ، وهو يرتطم
 بالجدران . وبعد أن يقضى دقائق خارج الدار ، يعود ثانية
 فيمكث أمام الموقد الدافئ ، حتى اذا أوت « جان » و « روزالى »
 الى مخدعيهما ، شرع فى العواء .. ويظل يعوى طيلة الليل
 بصوت يفتت الاكباد . وقد يصمت أحيانا برهة ، لكنه كان
 دائما يعود الى العواء ، بصوت اشد كآبة من ذي قبل ! وأخيرا ،
 ربط الى برميل خارج الدار ، لكنه ظل فى عوائه .. واذا كان
 قد شاخ وأوشك على الموت ، فقد حمل ثانية الى داخل المطبخ .
 وعز على « جان » النوم ، اذ كانت طيلة الليل تسمع عويل
 الكلب العجوز ، وهو يحاول أن يالف البيت الجديد . ولم
 يستطع شئ أن يهدئه .. وكان بصره قد خبا ، وكأنما كان
 ادراكه لعجزة سببا فى جعله يلزم السكون فى الوقت الذي
 يكون فيه الجميع قد استيقظوا وهبطوا ليطلقوه يهيم كيفما
 شاء .. لكن هذا السكون كان يفارقه فى الليل ، حين تفقد
 كل الكائنات بصرها لأمد موقوت .. وذات صباح ، وجد
 ميتا ، فبعث هذا ، الارتياح فى نفس كل انسان !
 واكتهل الشتاء ، فالفت « جان » نفسها فريسة لعذاب مطرد ،
 وقنوط شديد الوطأة .. لم يعد ما كانت تحس به حزنا اليما ،
 حادا ، وانما حل محله أسى كئيب ، قاس ، لم يكن ثمة ما يصرفها
 عنه ! .. لم يكن هناك من يفد لزيارتها .. وكانت الطريق

الممتدة أمام البيت مهجورة تقريبا .. ولقد تمر عربة نقل - فى بعض الاحيان - يقودها فلاح متضرع الوجه ، ملأت الريح قميصه فبدا كمنطاد أزرق ! .. أو قد تمر - من آن الى آخر - عربة صغيرة من عربات الركوب ، أو ترى « جان » على البعد شخصين : رجلا وامرأة .. يبدوان كبقتين صغيرتين فى صفحة الافق ، ثم يكبران رويدا حتى يبلغا الدار ، ثم يأخذان فى التضاؤل ثانية ، حتى يبدوان كحشرتين فى نهاية الطريق البيضاء التى كانت تمتد الى ماوراء مرمى البصر ، تختفى حيناً ، وتظهر حيناً ، وهى تمضى خلال التلال والوديان ..

♦ وعندما بدأت أعشاب الربيع تستوى على سوقها ، أخذت فتاة صغيرة - فى ثوب قصير - تمر بالدار كل صباح ، تسوق بقرتين عجفاوين ترعيان جوانب الحفر التى كانت تحف بالطريق .. فاذا حل المساء ، عادت الفتاة خلف البقرتين المتكاسلتين اللتين كانتا تخطوان خطوة واحدة كل عشر دقائق تقريبا .. وكانت « جان » تحلم كل مساء بأنها تقيم فى قصر « الحور » .. وترى فى المنام أنها قد عادت الى القصر مع أمها وأبيها والحالة ليزون ، فتعيش فى الماضى ، وكثيرا ما كانت تحلم بأنها تعين أمها وهما تخطران خلال المروج . فكانت تستيقظ فى كل مرة لتنخرط فى البكاء ..

وكانت لا تنفك تفكر فى « بول » وتساءل نفسها عما كان يفعل ، وكيف أصبح مظهره ، وهل كان يفكر فيها .. وكانت اذ تهيم فى الحقل ، تفكر فى أشياء تعذبها ، لكن الحقد الذى كانت تكنه للمرأة التى سلبتها ابنها ، كان أشد ايلاما .. وكان هو الشيء الوحيد الذى حال بينها وبين استقامة أو الذهاب لرؤيته .. كانت تتصور عشيقه « بول » تستقبلها لدى الباب متسائلة : « ماذا تبغين ياسيدتى ؟ » ، فكان كبرياؤها واحترامها لنفسها يصدانها عن تعريض نفسها لمثل هذا اللقاء !

٠٠ بل ان الكبرياء المتعالى الذى يعمر قلب أية امرأة عفيفة ، عاشت عمرها طاهرة ، كان يزيد من استنكارها لجبن أى رجل جعل من نفسه عبدا لشهواته ، لأن هذه الشهوات كانت لا تلبث أن تنحدر بالقلب الى الحضيض ٠٠ وكانت كلما فكرت فيما للحواس من أسرار داعرة ، وفي الاحضان الفاجرة ، وفي كافة الالغاز التى تكتنف الغواية الجنسية ، تشعر بأن الانسانية جمعاء ليست - الى حدما - طاهرة !

وانقضى الربيع ، وأعقبه الصيف ٠٠ ثم عاد الخريف بأمطاره ، وأيامه المعتمة ، الراكدة ، وسحبها القاتمة الكثيبة ، فأحسست « جان » بملل من حياتها الراهنة ، حتى لقد عقدت العزم على أن تبذل جهدا أخيرا لتستعيد « كتكوتها » ٠٠ وخيل إليها أن حبه المتأجج قد فتر ولا بد فى تلك الاثناء ، ومن ثم كتبت له رسالة ضارعة ، قالت فيها :

« صغيرى العزيز »

« أناشدك أن تعود الى ٠ فكر فى وقد غدوت هنا عجوزا عليلة ، وحيدة ، قضت عاما كاملا لا ترافقها سوى خادم ٠٠ اننى اعيش هنا فى بيت صغير على حافة الطريق ، وكم أنا شقية ، ولكن كل شئ خليق بأن يتبدل اذا ماكنت انت هنا ٠٠ انك كل مالى فى الدنيا ، ولقد انقضت سبع سنوات منذ رايتك ، ولن تدرك مدى شقوتى ، ومدى استغراقى فى التفكير فىك ٠٠ لقد كنت حياتى ، وحلمى ، وأملى الوحيد ، وحبى الأوحده ٠٠ وقد هجرتنى ونبتلتنى ٠٠ فعد لى يا « كتكوتى » العزيز ٠٠ عد ، ودعنى اضمك الى صدرى ثانية ٠٠ عد الى أمك العجوز التى تتوق فى ياسها الى رؤيتك »

« جان »

وأجاب الفتى بعد بضعة أيام ، بقوله :

« أمى العزيزة »

« ليس ابهج الى نفسى من أن آتى لأراك ، لولا اننى لا أملك مالا ، فلو وافيتنى بقدر منه فلسوف آتى ٠ ولقد كنت افكر على أى الحالات فى مشروع آخر ، لو لازمة التوفيق لاتاح لى أن احقق رغباتك ٠
« اننى لن اقوى قط على أن اكافئ المرأة التى شاركتنى متاعبى ، على وفائها وإنكارها لذاتها ، لكنى أستطيع - على الأقل - أن اعترف علانية بما

اسدته .. ان لها من الخلق النزيه كل ماتيقن ، وهي حسنة التربية والتعلم ، وقد كانت مبعث سلوى لى فوق ما أستطيع أن اصف .. وانى لاكون «حيوانا» لو اخفقت فى اظهار عرفانى لصنيعها .. ومن ثم فانى استاذنك فى الزواج منها ، واذ ذاك نستطيع أن نعيش جميعا معا فى بيتك الجديد ، لو انك غفرت لى ضالى .. وانى لموقن من انك ستبادرين الى الموافقة ، لو انك عرفت لى طباع سيدات عليا القوم ، وانها لمهذبة مثقفة ، واعتقد انك سوف تميلين اليها .. اما انا ، فليس فى وسعى ان أعيش بدونها !
« انى اترقب ردك فى لهفة .. وكلانا يبعث لك بحبه » .

« ابنك : فيكونت بول دى لامار »

وبهتت « جان » محزونة .. وجلست والخطاب فى حجرها ، تتمثل خلال سطورهِ حيل تلك المرأة للعب الغاوية ، التى أبت ان تدع « بول » يعود الى أهله ، واستبقته الى جانبها باستمرار ، وهى ترجو أن تقبل أمه أى شرط ، وتوافق على أى شىء ، من أجل أن تشفى شوقها الى أن يعود ابنها الى جوارها ثانية ! .. وراحت «جان» تفكر ، فى مرارة ، فى مدى تشبث بول بالاصرار على ايثار تلك المخلوقة عليها .. وراحت تتمتم مرددة : « انه لايجبنى .. لايجبنى ! »
وقالت لروزالى اذ أقبلت : « انه اليوم يريد أن يتزوج منها ! »

فشدهت الخادم ، وقالت : « أواه ياسيدتى .. ما أراك ستوافقين .. فليس للسيد بول أن يتزوج من مثل تلك البفى ! »

فانتفخ كبرياء «جان» ، بتأثير حزنها على الاقل ، وقالت : « كلا ياروزالى .. أبدا ! .. لكننى أرى أن اذهب لمقابلته ، مادام يابى أن يأتى الى .. ولسوف نرى لمن يكون الظفر ! »
وبادرت تكتب الى « بول » معلنة عزمها على زيارته ، سائلة اياه ان يلقاها فى أى مكان غير الدار التى يعيش فيها مع تلك المرأة البغيضة . وفيما كانت تنتظر رده ، أخذت تتأهب لرحلتها ، وشرعت « روزالى » تعد لها متاعها ، فلم تلبث ان

قالت وهى تطوى بعناية ثوبا قديما اعتادت « جان » أن ترتديه فى قصر « الحور » :

— ما أراك تذهبين بمثل هذه الثياب ، والا أخزيت نفسك ، وجعلت الباريسيّات يخلنك خادما !

وانصاعت « جان » لروزالى ، فقصدتا معا الى (جوديرفيل) ، حيث ابتاعتا قماشاً أخضر منقوشاً، أسلمتاه الى حائكة ، ثم ذهبتا لمقابلة المحامى « روسيل » ، الذى اعتاد ان يقضى شهرين من كل عام فى باريس . وكانت قد انقضت ثمانية وعشرون عاماً منذ زارت « جان » باريس ، فأفضى اليها « روسيل » بكثير من الارشادات عن اجتياز الطرق ، وتقادى النشالين ، قائلاً ان أسلم الطرق هى أن لا يحمل المرء من النقود أكثر مما تمس الحاجة اليه ، ثم يخطط الباقي فى ثنايا ثيابه . وتكلم بعد ذلك فترة عن المطاعم الرخيصة ، ذاكراً لها مطعمين أو ثلاثة تستطيع السيدات ارتيادها وحيدات ، واقترح عليها أن تنزل فى فندق (نورماندى) الذى كان جد قريب من محطة السكة الحديدية . . . فلقد اعتاد دائماً ان ينزل فيه ، وتستطيع « جان » ان تذكر انها قادمة من لدنه . وكانت قد انقضت ستة أعوام ، منذ مدت السكك الحديدية الحديثة بين باريس والهافر ، لكن « جان » التى كانت تعيش فى أشجانها ، لم تر أى قسم منها ، بل ولم تر القاطرات البخارية التى أحدثت انقلاباً فى الدولة بأسرها !

وانتظرت « جان » أسبوعاً ، ثم اسبوعين ، بيد انها لم تتلق من « بول » رداً . وكانت تخرج فى كل صباح لتقابل ساعى البريد ، وتسأله ملهوفة : « أليس لديك شئ من البريد لى اليوم ايها الاب مالاندان ؟ » . . . فكان يجيبها دائماً بصوته الاجش : « لا . . لا شئ اليوم »

وايقنت « جان » أن تلك المرأة هي التي منعت « بول » من الرد ، ومن ثم قررت أن لا تنتظر بعد ذلك ، بل ترحل فوراً . ورغبت في أن تصبحها « روزالى » لكن الخادم أبت ، لما سيطلبه ذلك من نفقات ، ولم تسمح لجان بأن تحمل معها أكثر من ثلاثمائة فرنك . وقالت : « اذا شئت مزيداً من النقود ، فاكتبى لى ، وسأمر المحامى بأن يبعث اليك بنصيب منها ، فانى أخشى ان اعطيتك مبلغاً كبيراً ، أن يأخذه منك بول ! »

وبعد انقضاء بضعة أيام من شهر ديسمبر ، أقبل « دنيس » ذات صباح بالعربة ليحملهما الى محطة السكة الحديدية ، إذ رأت « روزالى » أن ترافق « جان » اليها . فلما بلغتاهما ، سألتا عن ثمن تذكرة السفر ، وبعد أن ابتاعتهما ، وأسلمتا الحقيبة لتشحن فى عربة المتاع ، وقفتا ترتقبان القطار ، وكلتاهما مشوقة لأن ترى شكله ، حتى انهما نسيتا مؤقتاً ما كان يكتنف الرحلة من أسى . وسمعتا أخيراً صغيراً منبعثاً عن بعد ، فتطلعتا ، لتريا آلة ضخمة سوداء ، تقترب . وكانت تسمى نحوهما فى جلبه فظيعة ، تجر خلفها صفاً من البيوت الصغيرة ، المتحركة . وفتح احد الحمالين باب احدهما ، فقبلت « جان » روزالى ، وصعدت . فقالت لها الخادم : « وداعاً يا سيدتى . أتمنى لك رحلة ممتعة ، وعوداً قريباً »

— وداعاً ، ياروزالى

وانبعث الصغير ثانية ، وتحركت العربات ببطء مبتعدة ، ثم أخذت سرعتها فى الازدياد تدريجاً ، حتى بلغت درجة مخيفة . وكان فى العربة التى استقلتها جان راكبان آخران ، أحدهما للثوم ، فجلست « جان » ترقب الحقول ، والمزارع ، والقرى ، وهى تتراجع بسرعة . وأفزعتهما السرعة ، وأحسست فجأة بانها تلج مرحلة جديدة من حياتها . كانت تدفع فى عجلة الى دنيا جد مغايرة لتلك التى قضت فيها طفولتها الوداعة ، التى انقضت على وتيرة واحدة .



وبلغت باريس فى المساء ، فتبعت الحمال الذى اختطف حقائبها ، وسار بها فى عجلة ، أثارت انفعالها ، اذ كانت تخشى أن يغيب عن بصرها ! .. وما أن بلغت مكتب الاستقبال بالفندق ، حتى ذكرت انها قدمت بتوصية من مسيو « روسيل » ، فتساءلت المرأة القائمة على المكتب - وكانت كتلة ضخمة من اللحم : « ومن يكون مسيو روسيل ؟ » .. فأجابت « جان » ، مأخوذة بعض الشيء : « انه المحامى الذى يأتى من (جوديرفيل) لينزل هنا فى كل عام » .. فردت المرأة البدينة قائلة : « يجوز .. ولكننى لا أعرفه .. هل تريدن غرفة ؟ »

— أجل ياسيدتى

والتقط حمال حقيبتها وتقدمها صاعدا السلم الى احدى الغرف .. وكان قلب « جان » مثقلا بالهم ، فجلست الى منضدة صغيرة وطلبت قدحاً من الحساء وقطعة من لحم الدجاج .. ولم تكن قد أكلت شيئاً منذ الفجر ، فتناولت الوجبة التى طلبتها - فى غير تلذذ - على ضوء شمعة ، وهى تفكر فى ألف شيء : تذكرت مرورها بباريس فى عودتها من شهر العسل ، وبعض نقائص « جوليان » التى بدأت اذ ذاك فى الظهور .. لكنها كانت فى ذلك العهد شابة ، مليئة النفس بالثقة والامل .. اما الآن فقد أحست انها اكتھلت ، وان باريس ليست بالمكان الذى يروقها او تليق به ، بل أحست بانها خائفة .. ضعيفة .. سريعة الانفعال لا تفقه حادث .. فلما فرغت من الأكل ، وقفت تطل من النافذة على الشارع المزدهم .. وودت لو خرجت ، لكنها لم تجسر على ذلك ، فقد وقر فى نفسها انها ولا بد ستضل طريقها ، ومن ثم أوت الى سريرها ، بعد أن أطفأت الشمعة .. بيد أن الضجيج ، والشعور بالاغتراب ، والانفعال الذى تخلف عن الرحلة ، تعاونت جميعاً على ابقائها مسهدة .. وخفتت جلبة الشارع تدريجاً ، دون أن يكسبها ذلك شيئاً من الراحة ، اذ أن السكنينة الناقصة التى تسود المدن الكبيرة كانت تقض راحتها ، وهى التى ألقت نوم الريف الهادى العميق .. الذى يهيم على كل شيء .. على الانسان ، والحيوان ، والنبات .. أما الآن ، فقد أحست حولها بقلق هائل ، غامض ..

كانت تترامى الى أذنيها خلال جدران الفندق أصوات تكاد لا تبين معالمها .. وكانت أخشاب الارض تثر أحياناً ، أو يصطفق مصراعاً باب ، أو يرن جرس .. وفجأة ، وقد أوشك النعاس أن يواتيها حوالى الساعة الثانية من الصباح ، سمعت صرخة امرأة فى المجرة المجاورة ، فاستوت فى الفراش جالسة .. ثم سمعت ضحكة رجل .. فاستيقظت من جديد .. حتى اذا شرع النهار فى الانبثاق ، راودتها الافكار عن « بول » .. فلم يكد الضوء يلوح فى السماء حتى بادرت الى ارتداء ملابسها ..

وكان « بول » يقيم فى شارع (سوفاج) فى وسط المدينة ، ففكرت فى أن تقطع المسافة على قدميها ، خضوعا لقواعد الاقتصاد الشديد التى وضعتها « روزالى » لها .. وكان الجو لطيفا ، تشيع فيه برودة مستعذبة أخذت تلذع وجهها .. وأخذ الناس يغذون السير فى الطرقات سعيا الى أعمالهم . وانطلقت « جان » بأسرع ماتستطيع ، ماضية فى شارع أرشدت اليه ، وكان عليها إذا بلغت نهايته أن تنعرج يمينا ، ثم تنحرف يسارا ، حتى إذا وصلت الى ميدان ، كان عليها أن تسال ثانية عن سبيلها .. لكنها لم تجد الميدان ، فسالت خبازا ، أشار عليها باتجاهات مغايرة للتي كانت تتبعها .. ومن ثم بدأت من جديد ، لكنها أخطأت ، وهامت فى الطرقات متبعة اتجاهات أخرى ، حتى انتهى بها الامر الى أن ضلت طريقها تماما .. فاخذت تضرب فى الشوارع على غير هدى ، وهى تكاد تجن جزعا ! .. وأوشكت أن تستقل عربة ، فاذا بنهر «السين» يبدو امامها فجأة ، واذا ذاك سعت الى الميناء .. وبعد ساعة ، أو حوالى الساعة ، ولبت شارع (سوفاج) ، فاذا به شارع صغير ، معتم ، شديد الضيق .. ووقفت أمام باب الدار ، وقد تملكها انفعال شديد لم تقو معه على أن تتقدم خطوة أخرى .. اذن ، فـ « الكتكوت » هنا .. فى هذا البيت بالذات ؟ وشعرت بيديها وركبتيها ترتعش .. لكنها ولبت الدار أخيرا ، واجتازت الردهة ، ثم رأت غرفة البواب ، فقدمت اليه قطعة من النقود وهى تقول : « حل لك فى أن تصعد فتنبى السيد » بول دى لامار « بأن سيدة عجوزا ، صديقة لأمه ، ترجو أن تتحدث اليه ؟ » .. فاجاب الرجل : « انه لم يعد يقيم هنا ياسيدتى »

وسرت فى كيانها قشعريرة ، فقالت فى اضطراب : « وأين يسكن الآن ؟ » قال : « لست أدري »

واحست بأنها توشك أن تسقط ، وظلت لحظة لا تقوى على أن تنبس ببنت شفة . وبعد جهد عثيف ، استطاعت أن تتمتم : « ومتى انتقل من هنا ؟ » .. فانطلق الرجل مجيبا : « منذ اسبوعين .. خرجا ذات ليلة ولم يعودا قط ، فهما مدينان لكل من فى الحى .. ومن هنا تدرकिन السر فى انهما لم يتركا عنوانهما ! »

ورأت « جان » أضواء تنبثق أمام عينيها .. السنة ضخمة من نار ، كانما فجر انسان امامها مدفعا ! .. لكنها استمدت من فكرة ثابتة تملكها ، قوة كى تتجلد وتحتفظ بهدونها .. كانت تبقى أن تحيط بكل شئ ، وأن تعثر على « بوليه » فعادت تقول : « اذن فهو لم يقل شيئا حين بارح الدار ؟ » - آه ، لا .. لم يقل شيئا ما .. مضيا فى صمت لكى لا يضطرا الى السداد .. هذا كل ما فى الامر !

- ولكن ، الا يأتى أحد للسؤال عن خطابه ؟
 - قلما تصل اليهما خطابات .. انهما لا يكادان يتسلمان عشر رسائل فى العام ، كما تعلمين .. ولقد حملت اليهما خطابا ، قبل أن يبرحا الداربيومين ..
 .. لعله كان الخطاب الذى ارسلته « جان » ؟ .. ومالبثت أن قالت : « اننى امه ، وقد جئت من اجله . هاك عشرة فرنكات ، فاذا تلقيت آية أبناء او معلومات ، فتعال وقابلنى فى فندق « نورماندى » بشارع (الهافر) ، وسأجزيك جزاء طيبا »

فاجاب الرجل : « لك ان تعتمدى على يا سيدتى »
 وانصرفت «جان» ، وقد غدت لا تكثر بأية وجهه تنطلق اليها .. على انها ظلت على اسراعها فى السير ، كما لو كانت تجهد للحاق بموعد هام .. ومضت متعجلة ، ترتطم - بين آن وآخر - بأشخاص يحملون بعض الحزم .. وأخذت تعبر الطريق غير آبهة بالعربات ، فاجتلبت على نفسها سباب الحوزية ! .. وراحت تتعثر فى البالوعات ، وهى تواصل سيرها ، غير شاعرة اطلاقا بما حولها ..

والفت نفسها فجأة فى حديقه ، وقد برح بها التعب ، فتهاكت على أحد المقاعد الطويلة .. ومكثت برهة طويلة ، تنتحب فى خفوت ، والمارة يقفون ليحملقوا فيها .. ثم أحست ببرد ، فنهضت لتخرج ، وهى محطمة ، ضعيفة ، حتى ان ساقياها أوشكتا ان تتخاذلا عن حملها ..
 وودت ان تقف لتنال قسطا من طعام ، لكنها لم تجرؤ على ولوج مطعم ، اذ أحست بأن حزنها كان يبدو جليا لا بصر الجميع .. وأحيانا كانت تتوقف أمام باب مطعم ، تحديق داخله ، فاذا رأت الناس فيه جلوسا الى الموائد ، بادرت بالفرار قائلة لنفسها : « سأدخل المطعم التالى » .. لكنها لم تدخل المطعم التالى ، كما لم تدخل المطعم السابق .. وفى النهاية ابتاعت رغيفا صغيرا من أحد المخازن ، وشرعت تلتهمه فى الشارع .. وأحست بظما شديدا ، بيد انها لم تدر اين تذهب لتطفئه ، فقاومته ..

ومرت تحت بوابة يتوجها قوس ، ونفذت الى حديقه أخرى ، تحوطها الاقواس .. وأدركت انها فى حديقه « باليه روا » .. ولما كانت حرارة الشمس ، والمشى ، قد انهكها ، فقد جلست مرة أخرى ، لساعة أو اثنتين .. وكان فى الحديقه جمع من الناس ، من أولئك الذين يمتازون بالاناقة ، ويجيدون الانحناء والابتسام .. الذين أوتيت نساؤهم جمالا ، ورجالهم ثراء ، فباتوا لا يعيشون الا للمظاهر واللهو .. واذا أحست « جان » انها غريبة وسط هذا الحشد المرح ، تبهيات للانصراف ، لولا أن خطر ببالها فجأة ان « بول » ربما كان بين هؤلاء الناس ، فبدأت تسير بينهم ، وتتفرس فى وجوههم ملهوفة .. وأخذ القوم يلتفتون

متطلعين اليها ، ومنهم من راح يضحك ويشير اليها ، فبادرت الى الفرار ،
اذ ادركت ان مظهرها ، وثوبها الذى اختارته لها « روزالى » وخاطته حائكة
القرية ، كان سبب اذدرائهم اياها !

بل انها لم تجسر على أن تسال المارة عن الطريق ، لكنها مالبت فى النهاية
أن سالت أحدهم ، واهتدت الى فندقها ثانية .. فقضت بقية نهارها على مقعد
بجوار فراشها . ثم تناولت بعض الحساء ، وقطعة من اللحم ، كما فعلت فى
الليلة السابقة ، وأوت الى فراشها .. لكنها أدت كل ذلك بحركة آلية ، بحكم
العادة !

★ ★ ★

♦ وقصدت فى اليوم التالى الى قسم البوليس تستعين بالسلطات فى بحثها
عن ابنها . ولم تلتق وعدا بشئ محدد ، أكثر من أن المسألة ستكون موضع
عناية .. ثم راحت تهيم فى الطرقات ، آملة - ماتزال - أن تقابل « بول »
.. وازداد شعورها بأنها - وسط الزحام والعجيج - كانت أكثر وحدة ، وحيرة
وتعاسة ، مما كانت بين الحقول المقفرة من الناس !

وعندما عادت الى الفندق فى المساء ، قيل لها ان رجلا سأل عنها ، وقد جاء
بشأن ابنها السيد « بول » ، وانه وعد بالعودة فى اليوم التالى .. فشعرت
بالدم يتدافع الى رأسها ، ولم يغمض لها جفن فى تلك الليلة . لعله كان هو ؟
أجل ، لابد انه كان « بول » وان أوحى الاوصاف التى ذكرت لها بأنه شخص
لم تعرفه من قبل .

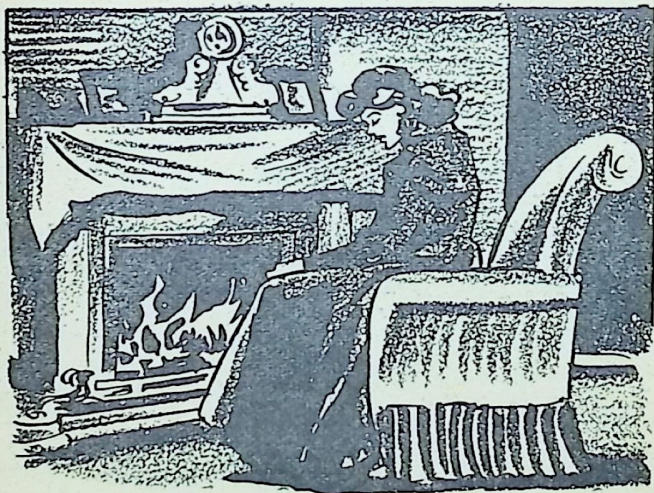
وحوالى الساعة التاسعة من الصباح التالى ، سمعت طرقات على الباب ، فصاحت :
« ادخل ! » .. وقد تاهبت لان تطير الى ابنها بدراعين مبسوطتين .. لكن
الداخل كان رجلا غريبا ، غير « بول » .. وبعد أن اعتذر عن ازعاجه اياها ،
ذكر انه جاء يتقاضى ديناً من ديون « بول » ! وأحست جان - أثناء كلامه - انها
كانت تبكى على الرغم منها ، فأخذت تمسح الدموع بأطراف اناملها بمجرد
انبثاقها من عينيها .. وكان الرجل قد علم بوصولها من بواب شارع (سوفاج) ،
ولما كان عاجزا عن العثور على الشاب ، فانه سعى الى أمه . ثم قدم لها ورقة
تناولتها فى غير وعى ، وقرأت فيها رقما : « ٩٠ فرنكا » ، فتناولت المبلغ من
كيسها ودفعته للرجل .

ولم تخرج فى ذلك اليوم . فلما كان اليوم التالى ظهر آخرون من اصحاب
الديون ، دفعت لهم كل ما كانت تملك ، فلم تحتفظ بغير فرنكات قلائل ..
وكتبت الى « روزالى » تطلعها على الموقف .. وبقيت فى الايام القلائل التالية
تنتظر ردا من « روزالى » ، وتقضى وقتها هائمة فى المدينة دون ما هدف .. فما

كانت لتعرف سبيلا آخر لقتل الوقت ، ولم يكن لها هنا اصدقاء .
 لم يكن لها من تفضي اليه بدخيلة نفسها . ولم تعد لها من رغبة
 سوى العودة الى البيت الصغير الذى كانت تخال - منذ زمن قصير -
 انها شقية فيه . فقد ايقنت ان لا عيش لها فى غير ذلك البيت الصغير ، حيث
 كان وجودها البغيض يبدو محتملا ، الى حد ما !

ووصل اليها اخيرا خطاب من « روزالى » ، انطوى على مائتى فرنك ، وقد
 جاء فيه : « سيدتى جان . . عودى باسرع ما تستطيعين . لن ارسل لك مزيدا
 من المال . اما السيد بول ، فساذهب بنفسى لاجل حضره متى تلقينا اى نبا منه .
 ولك احترامى » . . خادمك « روزالى »

وهكذا عادت جان الى (باتفيل) ذات صباح قارس ، جليدى البرد



الفصل الخامس عشر

♦ ابت جان بعد عودتها من باريس أن تخرج في رياضتها المعتادة للسير على قدميها ، أو تهتم بأى شئ . كانت تستيقظ كل صباح فى موعد لا يتغير ، فتطل من النافذة تتفقد حال الجو ، ثم تهبط السلم وتجلس أمام المدفأة فى قاعة المائدة . كانت تجلس هناك يوما بعد يوم ، جامدة لا تتحرك ، وعيناها تحملقان فى النار ، وهى تذكر كل الاحزان المريزة التى شابت حياتها . ولا يلبث الظلام ان يخيم على الحجرة الصغيرة رويدا ، دون أن تتحرك « جان » ، اللهم الا لتذكى النار أو تغذيها بمزيد من الخشب . حتى تقبل « روزالى » فى النهاية حاملة مصباحا ، لتقول لها : « هيا ياسيدتى جان . يجب أن تتمشى قليلا ، والا فانك لن تستطيعى ان تتناولى شيئا من الطعام » .

• ولكن الافكار والهواجس كانت لا تفتأ تراود « جان » ، وصارت تتعذب للصفائر . غدت الامور التافهة تحتل قسما ضخما من عقلها المختل . كانت تعيش فى الماضى ، تحلم بشبابها ، وبشهر العسل الذى قضته فى (كوسيك) .

وكانت مناظر الخلاء فى الجزيرة - المناظر التى نسيتهما منذ زمن طويل - تظهر فجأة وسط لهب من النار المتراقص ، كأنما بطريقة سحرية ، فإذا بها تتذكر كل صغيرة ، وكل حادث ، وكل شخص دى صلة بالجزيرة .. وكان وجه الدليل « جان رافولى » يطاردها .. بل كانت تخال أحيانا أنها تسمع صوته ! وكانت فى أحيان أخرى تتذكر السنين الهادئة ، سنين طفولة « بول » .. وكيف كان واياها يعينان بالحديقة ، ويركعان مع الخالة ليزون فى الحديقة ، وكل من المراتين تحاول أن تبذ الأخرى فى ارضاء الغلام بزراعة أكبر عدد من النباتات .. وكانت الذكرى تحرك فيها فيتخذ الشكل الذى تنطق به كلمة : « كتكوت .. كتكوتى الصغير » ، وكأنها تخاطبه فعلا ! .. ثم تكف عن الحلم بالمضى ، وتقضى الساعات ترسم فى الهواء حروف اسم ابنها . ترسمها ببطء أمام النار ، وتتوهم انها تراها فعلا .. ثم تتخيل انها أخطأت ، فتبدأ من جديد ، وتكرر الكتابة فى الهواء مرة بعد مرة ، محاولة ان تقسر نفسها على أن تكتب الاسم كله ، رغم ارتجاف ذراعها من فرط التعب .. ولا تلبث ان تنفعل ، فتخلط بين الحروف ، وتأخذ كلمات أخرى فى الظهور .. ثم تستسلم « جان » للقفوط وأخذت تنتابها الوسواس ، وتستسلم للاضطراب ، كما يفعل أولئك الذين يمنون بالعزلة ، فكان أتفه تغير فى نظام الاثاث يثير غيظها وانفعالها ! وكانت « روزالى » لا تفتأ تستحجها على الخروج لتتمشى ، لكن « جان » كانت لا تلبث بعد عشرين دقيقة ان تقول انها متعبة ، وتجلس على حافة الطريق .. بل انها سرعان ما كانت تنزعج لاية حركة ، فتظل جالسة فى السرير الى ساعة متأخرة من الليل . ولقد كانت طيلة حياتها حريصة على عادة القفز من السرير بمجرد أن تفرغ من احتساء قهوتها ، اذ كانت ذات شغف خاص بقهوة الصباح ، لا تضحي بها الا على مضض ، وتظل ترتقب فى صبر نافذ ان تحملها « روزالى » اليها .. واذا ذلك تجلس فى الفراش ، وتحسبها فى نهم ، ثم تطرح جانباً أغطية الفراش وتشرع فى ارتداء ثيابها .. ولكنها أخذت تنساق الآن تدريجاً لعادة الاستغراق فى أحلام اليقظة بضع دقائق بعد ان تفرغ القدح ! ثم بدأت تألف العودة للاستلقاء من جديد فى كل صباح ، والبقاء فى السرير حتى تاتى « روزالى » غاضبة فتلبسها ثيابها بالاكراه !

وأخذت تفقد ارادتها وريدا ، فكانت كلما سألتها « روزالى » رأيها ، او استفسرت منها عن شىء ، أجابت : « افعلى ما يحلو لك ياروزالى » .. ثم بدأت تعتقد أن النحس يطاردها فى غير هودة ولا اشفاق ، الى درجة جعلتها تؤمن بالقدر كامل الشرق ! .. وانسحقت نفسها من فرط ما اعتادت أن ترى آمالها وأحلامها تمنى دائما بالخيبة ، فلم تعد تجرؤ على الانتعاش بأى أمل جديد ، او الاقدام على أى عمل جديد .. بل أصبحت تتردد أياها قبل الاقدام

على أبسط مهمة ، وهي موقنة من أن كل ما تفعله لابد أن يتمنح عن خطأ ! وكانت لا تفتأ تقول : « ما أظن أحدا قد لاقى من سوء الطالع ما نالني طيلة حياتي ! » .. فكانت روزالي تجيبها : « ما الذي كان يصير اليه أمرك لو أنك كنت مضطرة لأن تعمل كي تكسبي قوتك ، فتنهضي من نومك في الساعة السادسة من كل صباح ، وتنطلقى الى العمل الشاق طيلة اليوم ؟ .. كم من اناس تضطربهم ظروف الحياة لأن يفعلوا هذا ، حتى اذا طعنوا في السن وعجزوا عن العمل ، ماتوا في فقر ومسغبة ! » .. فكانت جان تتمتم : « ولكن ابني هجرني .. لقد غدوت وحيدة » .. واذا ذاك كان حين « روزالي » يحتدم ، فتقول : « وماذا لو فعل ؟ ما قولك في أولئك « الاطفال » الذين يضطرون الى الخدمة العسكرية ، أو يستقرون في أمريكا ؟ - فقد كانت أمريكا في عيني « روزالي » بلدا مبهما ، بدائيا ، يذهب اليه الناس آملين أن يجمعوا ثروات ، فلا يعودون منه أبدا ! .. وكانت « روزالي » تستطرد قائلة : « ان الابناء يتركون آباءهم دائما ، طال الزمن بهم أو قصر ، فان الشباب والكهولة لم يخلقا ليعيشا معا .. ثم ، ماذا لو انه كان قد مات ؟ » .. ولم تكن « جان » تحير جوابا !

★ ★ ★

◆ وعندما أقبل الربيع ، تحسنت صحة « جان » بعض الشيء ، لكنها استغلت هذا التحسن كي تزداد انغماسا في أحزانها ! وعندما صعدت ذات يوم الى غرفة السطح ، التي كانت تستخدم كمخزن ، تلتمس فيها شيئا ، عثرت على صندوق اشتمل على عدد من التقاويم (النتائج) القديمة التي كانت تحتفظ بها بحكم العادة .. وكانها عثرت على تلك السنين ذاتها ! فقد غلبتها المشاعر الجياشة ، وهي تنظر الى البطاقات ذات الاشكال الزخرفية ، وما لبثت ان حملتها وهبطت الى قاعة المائدة ، حيث بدأت تنشرها على المنضدة حسب ترتيبها الزمني .. ثم تناولت اول بطاقة منها : بطاقة تقويم العام الذي غادرت فيه الديار .. وأخذت تتأملها طويلا ، وتنعّم النظر في التواريخ التي كانت قد ضربت عليها خطوطا .. ثم شرعت تبكي ، ببطة ، وحرقة ، وبالدموع السخينة لامرأة عجوز .. كانت هذه البطاقات المنشورة على المائدة تمثل كل حياتها العتسة !

ثم فطنت الى أنها تستطيع بهذه التقاويم ان تتذكر كل شيء فعلته في حياتها ! واستسلمت لهذه النزوة ، فبدأت تعود القهقري الى الماضي .. وثبتت الى الحائط البطاقات التي اصفر لونها لقدمها ، ومضت تقضى الساعة تلو الساعة امامها جميعا ، تسائل نفسها عما فعلت في هذا الشهر أو ذاك .. وكانت قد وضعت علامات امام جميع التواريخ الهامة في حياتها .. وكانت أحيانا تتذكر شهرا بأكمله ، اذا ما ربطت بين حادث وآخر ، وبين جميع المواقف الصغيرة التي

كانت تسبق أو تعقب حدثا هاما .. واستطاعت بالامعان فى التفكير ، وباجتهاد ذاكرتها ، أن تستعرض أكثر احداث العالمين الاولين اللذين قضتهما فى ضيعة « اشجار الحور » .. وكانت هذه الفترة من حياتها حية فى ذاكرتها بوجه خاص ، بعكس السنوات التى اعقبتها ، والتى بدت ملتفة فى غلالة من ضباب ، بحيث صارت تخلط بينها .. وكانت تعكف أحيانا على تقويم تتفرس فيه ساعات ، دون أن تقوى على تذكر ما اذا كان هو العام الذى حدث فيه كذا أو كيت من الاحداث ؟ .. وتروح تدور فى قاعة الطعام بخطى بطيئة تتأمل هذه الاشياء التى كانت تذكرها بالماضى ، والتى كانت تترأى لها كمعالم ترشدها الى الطريق وهى تصعد على جبل من الجمالجم ! .. ولا تلبث أن تجتذب احداها انتباهها ، فتجلس تحديق فيها بقية نهارها !

★ ★ ★

♦ ولم يمض وقت طويل حتى دب نشاط الحياة فى الحقول ، فاذا البذور نبتت ، والاغصان تزهر ، والجو يتضوع بعير زهر التفاح العبق ، والبساتين تدب فيها حمرة وردية .. فلما اشرف الصيف ، اشتد بجان التملل والاضطراب ، حتى لم تعد تقوى على البقاء ساكنة .. فصارت تخرج الى الخلاء عشرين مرة فى اليوم ، تذكرى بتسللها خلال المزارع وقدة العذاب فى نفسها ! كان يكفى أن تلمح نصف اقحوانة متوارية ، أو شعاعا من الشمس بين أوراق الشجر ، أو انعكاس صورة السماء على صفحة بركة من ماء المطر .. حتى تقشعر بالانفعال ، اذ يبعث المنظر فى نفسها صدى لاحساس خفق به قلبها يوما وهى شابة ! ولانها لم يعد لديها ما تتطلع اليه ، فان تذكر ذلك الجو البهيج كان يثير فى كيانها عين هزة الطرب التى كانت تستشعرها عندما كانت حياتها بأسرها ما تزال فى ضمير الغيب لا تدرى شيئا عنها .. بيد ان هذا السرور كان مشوبا بالالم ، وكانت بقطلة الطبيعة هذه التى كانت كفيلة بأن تشيع فى نفسها الابتهاج . تبدو أكثر اشاعة للأسى فى ذهنها المحزون وقلبها الكسير . كان كل شيء يبدو متغيرا عما اعتادت أن تراه عليه فى الماضى : فالشمس اقل اشاعة للدفء من ذى قبل ، والسماء اقل زرقة ، والعشب اقل خضرة ، والزهور اقل نضارة .. ومن ثم لم تعد هذه الاشياء تحرك احساسها كما كانت تحركها من قبل .. وكانت فى بعض احيان غابرة ، تفعم احساسا بأنها بخير ، فلا تلبث أن تجد نفسها منساققة للاحلام ، ويعاودها الرجاء ثانية .. فليس من الممكن للاستسلام دائما لليأس التام - مهما كانت قسوة القدر - اذا ما اشرقت الشمس ، وصحت السماء !

وكانت تهيم على غير هدى ، ساعة بعد ساعة ، يحدوها ذلك الانفعال الداخلى .. وقد تجلس أحيانا على حافة الطريق تستعرض متاعبها ، وتساءل نفسها :

لم لم تلق من الحب ما تلقاه غيرها من النساء ؟ .. لما ذا حرمت من أبسط المسرات التي تداخل أى وجود خلو من الاحداث ؟ .. وكانت أحيانا تنسى - لحظة فقط - انها عجوز ، وان ليس لديها ما تتطلع اليه من متع ، ولم يعد بين حياتها ونهايتها سوى بضع السنوات الباقية الموحشة .. كانت تنسى هذا ، لحظة ، فتنهمك فى بناء قصور فى الهواء ، وفى رسم خطط بهيجة للمستقبل ، كما كانت تفعل . وهى فى السادسة عشرة ! ثم لا تلبث أن تواتيها الحقيقة العارية ، حقيقة وجودها المرير ، فتنهض من جديد بقلب مثقل ، وتعود الى البيت وهى تتمتع لنفسها : « يالك من عجوز حمقاء ! .. عجوز حمقاء ! »

وكانت « روزالى » لا تفتأ تنصحها بأن تسكن ، وأن تكف عن الجرى خلال الريف ، فكانت جان تقول لها : « لا أستطيع .. اننى أشبه « سلوتر » قبيل موته ! »

وذات صباح ، أقبلت « روزالى » على مخدع « جان » مبكرة عن عادتها ، وقالت وهى تضع قذح القهوة على المنضدة : « عجل باحتساء قهوتك ، فان « دنيس » فى الانتظار ليقلنا الى ضيعة « أشجار الحور » ، اذ لدى بعض أعمال أريد انجازها هناك »

واحسبت « جان » بدوار لفرط انفعالها ، ولم تكذ تصدق - وهى ترتدى ثيابها ولا تكف عن الارتجاف - انها سترى مرة أخرى دارها الحبيبة !

وكانت السماء صحوه ، صافية ، فأخذ جواد « دنيس » يهرع فى قفزات مرحة - بين آن وآخر - وهم منطلقون .. وما أن بلغوا (ايتوفان) ، حتى كانت « جان » لا تكاد تتمالك أنفاسها من شدة انفعالها . واذا أبصرت العمودين المقامين من الطوب الى جانبى بوابة الضيعة ، ملأت رئتيها بالهواء ، وكأنها أمام شئ يتغلغل الى أعماق أغوار نفسها ! .. ثم تركوا الجواد فى مزرعة « كويار » ، وبينما ذهبت « روزالى » و « دنيس » لانجاز عملهما ، سأل المزارع « جان » عما اذا كانت تحب أن تزور القصر - اذ كان مالكة غائبا - فلما ردت بالإيجاب ، أعطاها المفتاح ، فذهبت بمفردها .. وحين بلغت القصر ، وقفت جامدة تحلم فىه ! لم يكن قد اعترى مظهره الخارجى أى تغير منذ بارتحه . وكانت كل التوافذ مغلقة ، والشمس تصلى جدران المبنى التى لوححتها عاديات الجو بالسمرة .. وسقطت على ثوبها شظية من خشب حملها الهواء ، فلما تبينت انها من شجرة الدلب ، يمت شطر الشجرة ، وتحسستها فى شغف ، كما لو كانت شيئا حيا ! .. ومست قدمها قطعة بالية من الخشب ، فالتفتا آخر بقية من المقعد الخشبي الذى طالما جلست عليه مع أحبائها .. المقعد الذى أقيم فى تلك البقعة يوم جاء « جوليان » فى أول زيارة أداها للقصر !

وصادقت « جان » عناء فى فتح الباب المقضى الى الردهة ، لأن الصدا كان

قد علا المفتاح فابى أن يدور .. لكن القفل لم يلبث أن انصاع لهافى النهاية ، فانفرج الباب بعد ذلك من أول دفعة منها .. وكان أول مافعلته حين دخلت ، أن هرعت الى غرفتها السابقة . كان الورق الذى يكسو جدرانها قد جدد ، حتى أوشكت أن تنكر الحجرة ، لكنها حين فتحت إحدى النوافذ وأطلت منها ، أحسست بتأثر أوشك أن يدفع الدموع الى مقلتيها ، اذ رأت مرة أخرى ذلك المنظر الذى أحبه الحب كله : البستان ، وأشجار الدردار ، والسهل ، والبحر وقد تناثرت عليه الاشربة المغبرة ، التى بدت من بعيد وكأنها جامدة لا تتحرك .. ثم انطلقت تجوس خلال الدار كلها ، وتتفقد البقع التى كانت تالفها على الجدران .. ووقفت لتتأمل ثقباً صغيراً من الطلاء كان البارون قد أحدثه بعصاته، ثم اعتاد أن يدك فيه عصاته كلما مر به ، مقلدا ما كان يذكره عن طفولته ومبارزاته الصبانية .. كما عثرت جان فى مخدع أمها على دبوس صغير ذى رأس ذهبية كان مغروساً فى الجدار ، خلف الباب ، وقد خيمت على مكانه العتمة .. كانت جان قد غرسته بنفسها هناك منذ زمن بعيد ، وكثيراً ماراحت بعد ذلك تبحث عنه فى كل مكان .. فلما وجدته الآن ، انتزعته وقبلته ، وقررت أن تأخذه معها تذكراً لا يقدر بمال ..

ثم ولجت جميع الغرف الأخرى ، وهى تتبين بقعا وعلامات لا تكاد تبين ، على الستائر التى كانت لا تزال فى أماكنها .. ورات مرة أخرى الاشكال الغريبة التى كان خيالها يرسمها على كساء الاثاث ، ونقوش حافة المدفاة ، والظلال التى كانت منطبعة على السقف المتسخ .. ومضت خلال الدار الواسعة ، الساكنة ، تطوف بها فى هدوء وكأنها مقبرة ، فقد أحسست بأن حياتها كلها كانت دفينه هناك ! .. فلما دخلت قاعة الجلوس ، اضطرت الى أن تتريث حتى تألف عينها الظلام . وعندئذ استطاعت أن تتبين رويداً كساء المقاعد التى نقشت عليها صور الطيور . وكان ثمة مقعدان أمام المدفاة ، وكان صاحبيهما قد فارقاها منذ لحظات ، فلم تكد تلمحهما حتى تدافعت الذكريات القديمة فجأة الى ذهنها ، ففطنت الى الرائحة المبهمة التى كانت تشيع فى الحجرة ، والتى طالما امتازت بها ، كما يمتاز كل شخص بعبير خاص .. كانت رائحة محسوسة ، لكنها مع ذلك خفية ، كعبق عطر ثمين .. وأخذت تنفّس بسرعة . وهى تحدد فى المقعدين ، وتنشّق عبير الماضى ! .. وكما لو كانت تعيش فى رؤيا حاملة ، توهمت انها ترى أباهما وأماها يجلسان على المقعدين كما كانت عادتهما ، فاجفقت فى ذعر ، واذا ذاك تمثرت فى عتبة الباب ، فتعلقت باطاره مستندة اليه ، وهى مازالت تحمق فى المقعدين .. وتلاشت الرؤيا ، لكن « جان » ظلت مسمرة فى مكانها عدة دقائق . فلما افافت ، وقر فى ذهنها انها توشك أن تفقد عقلها ، فتحوّلت وانطلقت تجرى .. وحانت منها التفاتة وهى تفعل الى

اطار الباب ، فرأت « مقياس بوليه » ! .. كان كثير من العلامات الواهنة التى حفرت فى فترات ، والارقام الدقيقة التى نقشت الى جوارها لتدل على الشهر ، وعلى عمر الطفل وطوله ، لا تزال واضحة الى درجة يمكن معها تمييز خط البارون الكبير الثابت ، وخط الحالة ليزون المرتعش ، وخطها هى الدقيق .. وخيل اليها انها ترى « بوليه » هناك ، وقد الصق جبينه الصغير بالحائط ريثما يقاس ارتفاعه ، والبارون يهتف : « لقد نما يا «جان» سنتيمترا خلال فترة لم تتجاوز ستة أسابيع ! » .. وازاء جبروت الذكرى شرعت «جان» تقبل المكان فى وجد فياض ..

- ياسيدة جان .. ان الغداء معد !

وسمعت « جان » نداء « روزالى » ، فخرجت وهى تحس بدوار .. وحين جلست الى المائدة كانت مرتبكة ، عاجزة عن ان تفهم شيئا مما قيل لها .. وراحت تاكل فى حركات آلية ، وتنصت الى الكلمات دون ان تسمعها ! وبذهن شارد ، كانت تجيب زوجات المزارعين كلما استفسرن منها عن صحتها، وتقبلت قبلاتهن فى جمود ، وردت بقبلات طبعتهما بهذا الجمود عينه .. وأخيرا ، صعدت الى العربة

ولما لم يعد بوسعها ان ترى قمة القصر العالى من خلال الاشجار ، خيل اليها ان ثمة شيئا يتضعض فى فؤادها .. ودخلها شعور بانها قد ودعت دارها القديمة ، الى الابد !

★ ★ ★

♦ ويهموا لفورهم صوب (باتفيل) .. وفيما كانت « جان » تهم بدخول البيت ، رأت ورقة بيضاء تحت الباب ، كان ساعى البريد قد وضعها اثناء غيبتها .. وعرفت فى الحال خط « بول » ، ففقت الرسالة فى لهفة والم جنونى غريب .. واذا فيها :

« أمى العزيزة

« لم اكتب اليك منذ امد طويل ، لاننى لم اشأ ان تاتى الى باريس سدى ، وكنت طيلة الوقت عاقدا عزمى على ان آتى بنفسى لاراك .. اننى فى هذه اللحظة فى هم عظيم وعناء ، فقد وضعت زوجتى منذ ثلاثة ايام طفلة ، وهى الآن تحضر .. وليس لى اى قدر من المال ، كما اننى لا ادرى ما الذى افعله بالطفلة التى تحاول زوجة البواب وسعها ان تغذيها بمرضعة من زجاج ، لكننى اخشى ان افقدها .. فهل فى وسعك ان تأخذها ؟ .. اننى لاملك ان اعهد بها الى مرضعة لاننى لا املك مالا ، ولذا فانا فى حيرة لا ادرى ماذا ينبغى ان افعل .. اضرع اليك ان تجيبينى بعودة البريد .. »

ابنك المحب : « بول »



وتهاكت جان على مقعد ، وقد غشيها ضعف لم تقو معه على ان تدعو روزالى
وما لبثت الخادم ان جاءت فقرأتا الخطاب معا مرارا ، ثم جلستا ، تحديق كل منهما
فى الاخرى ، فى صمت .. وأخيرا قالت « روزالى » : « سأذهب كى أحضر
الطفلة ، فلسنا نملك ان نتركها تموت ! »

— حسن جدا ..

— حسنا ، ارتدى قبعتك ، وسنذهب لزيارة المحامى فى (جوديرفيل) ،
اذ لابد للسيد بول من أن يتزوج من المرأة — اذا كانت موشكة على الموت —
من أجل الطفلة !

ولبست « جان » قبعتها دون أن تنبس بكلمة ، وقد أغم قلبها بسعادة أبت
أن تظهرها ، لأنها كانت من تلك الالوان الخسيسة من السعادة ، التى يذكىها
الناس سرا فى خيايا قلوبهم ، لكنهم رغم ذلك يستحون منها : أخيرا .. هاهى
ذى عشيقه ابنتها توشك ان تموت !

وأدلى المحامي بإرشادات مسهبة حملته « روزالى » على أن يكررها مرتين وثلاثا، حتى اذا وثقت من أنها على دراية تامة بما تفعل ، قالت : « لا تحملى هما .. ساعنى بكل شئ » .. ثم رحلت الى باريس فى المساء عينه

★ ★ ★

♦ وقضت « جان » اليومين التاليين فى كرب وعذاب ، لا تستطيع أن تركز تفكيرها فى شئ ما .. وفى اليوم الثالث ، تلقت من « روزالى » رسالة تضمنت بإيجاز انها ستعود فى ذلك المساء بالقطار .. ولا عبارة أكثر ! .. وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر أرسلت « جان » الى جار لها تستفسر عما اذا كان بوسعها ان يقلها فى عربته الى محطة السكة الحديدية فى (بيزفيل) لتستقبل خادمتهما .. ووقفت على الرصيف وقد علقت نظراتها بالقضبان التى كانت تبدو متلاقية عند الافق .. وكانت تنظر الى الساعة من وقت لآخر : لا تزال ثمة عشر دقائق .. خمس .. اثنتان .. وأخيرا حان الموعد المحدد للقطار ، بيد انه لم يكن قد بدا بعد للابصار ! .. ثم لم تلبث أن رأت سحابة من دخان ابيض ، تتحرك تحتها بقعة سوداء أخذت تزداد حجما بالتدرج .. وأقبلت القاطرة الضخمة الى المحطة ، تنفث الدخان وهى تهذى من سرعتها .. وأرسلت « جان » بصرها ملهوفة خلال كل نافذة ، والعربات تمر امامها .. وراقبت الناس وهم يهبطون من القطار : فلاحين فى ثياب رخيصة ، وزوجات المزارعين يحملون سلاسا ، وعددا ضئيلا من الاعيان يرتدون قبعات عالية .. وأخيرا ، ظهرت « روزالى » تحمل بين ذراعيها ملاح كأنه حزمة من ثياب .. وهمت « جان » بأن تسعى الى « روزالى » ، لكن القوة تلاشت من ساقها ، فخشيت أن تهوى على الارض اذا هى تحركت .. وهتفت الخادم : « أهلا ياسيدتى .. هاانذا قد عدت ، وان لم تكن عودتى سهلة »

— وماذا وراءك ؟

— لقد ماتت فى الليلة الماضية .. على انها كانا قد تزوجا .. وهاهى ذى طفلتها !

وبسّطت ذراعيها بالطفلة التى كانت تختفى فى اللفاف ، فتناولتها « جان » بذهن شارد .. وخلقتا المحطة ، مستقلتين عربة كانت فى انتظارهما .. وقالت « روزالى » : لسوف يأتى السيد بول الى هنا بمجرد تشييع الجنازة .. وأظنه سيصل غدا .. فى القطار الذى يصل فى هذا الموعد بالذات .. فهمست « جان » : « بول .. »

وكانت الحقول الخضراء الموشاة بالزهور الذهبية ، وبأزهار الحشخاش الارجوانية الحمراء ، غارقة فى الضوء المنساب من الشمس الغاربة .. وقد هبط على الارض الساكنة سلام مطمئن ناعم .. ومضت العربة بسرعة ، والحوذى

يططق بلسانه فى جوف فمه ليستحث الجواد .. وأرسلت « جان » بصرياً
فى السماء التى كان يشقها سرب من العصافير ، مضى يحلق فى شبه دائرة ،
وكانه مجموعة من شهب ..

ولم تلبث ان أحست بدفء ناعم ، دفء الحياة التى كانت تحاول ان تنبئها
الى وجودها ، والذى سرى خلال ثيابها ، واخترق كل كيائها .. كان الدفء
المنبعث من الجسم الضئيل الذى كان ينام فى حجرها . وفجأة ، طفت عليها
المشاعر ، فازاحت اللغائف ، وتاملت وجه ابنة ابنها .. واذا وقع الضوء على
وجه المخلوقة الصغيرة ، فتحت عينيها الزرقاوين ، وحركت شفتيها ، فضمتها
« جان » الى صدرها .. ثم رفعتها بين يديها ، وشرعت تغمرها بالقبلات !

وهفت « روزالى » بصوت حاد ، خامرتة هناة واغتياب : « كفى ياسيدة جان
.. فلتكفى عن هذا والا ابكيت الطفلة المسكينة »

ثم أضافت فى صوت خافت ، وكأنها تعلق على أفكارها الخاصة التى كانت
تجول بخاطرهما : « ان الحياة - رغم كل شيء - ليست دائماً من الحسن أو السوء
بالدرجة التى يخالها الناس عليها ! »



تعقيب على القصة

♦ والآن أيها القارئ ، وقد فرغت من قراءة هذه القصة ، لعل ذهنك قد انشغل بأكثر من سبب للتساؤل ، والتأمل .. وها إننا أحاول أن أجيبك الى ما أرجح أنه قام في ذهنك من أوجه التساؤل حول مغزى « حياة امرأة »

لو أننا تأملنا الشخصية الاولى فى رواية « حياة امرأة » ، شخصية المرأة التى دارت حولها الرواية - « جان » - لوجدنا كثيرا من أوجه الشبه بينها وبين « لور » أم « موباسان » . ويقول « فرانسيس ستيجمولر » - فى كتابه الذى لخصته لك فى مقدمة الجزء الاول - ان (حياة امرأة) كانت « أقرب مؤلفات موباسان الى حياة أمه ، اذ أن « جان » - فى الرواية - صورة من لور ، وان كانت أقل منها ذكاء ، وأقل ثقافة ، وأقل نزوعا الى الاستقلال بشخصيتها .. فقد كانت مثالا للشابة المنحدرة من أسرة نورماندية طيبة ، والتى لا تصر على الطلاق ، بل تدع زوجها يواصل مغامراته الدنيئة ، حتى دمر حياتها وحياته ، وحياة سواه .. »

بل ان « موباسان » لم يغفل بعض التفاصيل الدقيقة فى شخصية أمه ، وهو يرسم شخصية « جان » ، من ذلك تصرف « جان » عند وفاة أمها ، وقضاؤها الليل الى جوار جسدها ، نجده فى خطاب من « لور » الى صديق صباها « فلوير » ، وهى تحدثه عن أساءها لوفاة أمها : « استطعت ان أمكث الى النهاية بجوار جثمان الراحلة العزيزة ، فجلست ليلتين أتأمل وجهها الذى اتخذ - فى سكينه الموت العلوية - شيئا من ملامحه فى الايام الخالية .. »

.. أما ما كانت « جان » تعانيه من وحدة ، وأحزان ، واستسلام للاحلام ، فنراه ممثلا فى بعض خطابات موباسان الى أمه ، فيما بين العامين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من عمره ، من ذلك : « لا أفك أفكر فى الليالى الطوال التى ستقضيها وحدك ، تتمثلين - فى أسى - أولئك البعيدين عنك ، فى أحلام تخلفك سقيمة ، مهمومة .. ولسوف أتمثلك جالسة فى مقعدك المريح ، تحديق فى نيران المدفأة كما يفعل أولئك الذين تهيم أفكارهم بعيدا .. »

.. بل انه أضفى على شخصية « جان » بعض ما كان يخالجه هو نفسه ، فى العقد الثانى وبعض العقد الثالث من حياته ، فقد كتب الى أمه حين أجبرته الوظيفة الحكومية على الإقامة بعيدا عنها فى باريس : « أشعر هنا باننى تائه ، وحيد ، خائر الروح » .. وكتب اليها فى مرة أخرى : « لست مريضا ، بما للمرض من معنى ، ولكنى أحس بضعف شامل ، مخيف ، حتى

لنمر بي لحظات أخال فيها ان عقلى لا يكاد يعمل ، فأظن حائرا اسائل نفسى :
أمستيقظ أنا أم. حالم ؟ .. وهى نفس العبارات التى رأيناها يكررها فى
تحليله لنفسية « جان » ..

ونحن نرى فى صورة « البارون » فى القصة ، لمحات من شخصية جسد
موباسان « لأمه .. فقد كان مسيو « لو بواتيفان » رجلا متحررا فى عقيدته
الدينية ، لا يتردد على الكنيسة ، ولا يكرم رجال الدين ، مكتفيا
بأن يكون مقتنعا فى دخيلة نفسه بأن ضميره راض مرتاح ، وأن ما بينه وبين
الله « عامر » دون وساطة رجال الدين .. وهكذا كان « البارون » !

بل ان ما أورده « موباسان » فى الرواية من تهكم برجال الدين
والقساوسة ، ينبعث من عقدة كمنت فى نفسه منذ صباه .. عقدة خلفها
نفوره وكراهيته لمدرسة دينية فى « ايفيتو » - بالقرب من (روان) - كان
يتولى التدريس فيها « رهبان » ، وقد بلغ من كراهية « موباسان » لهذه
المدرسة أنه هرب منها وادعى المرض ، تماما كما فعل « بول » فى الرواية ،
ولكن أمه استطاعت أن ترده اليها ثانية ! على أن هذا لا يعنى ان « موباسان »
أودع فى شخصية « بول » لمحات من نفسه هو ، بل انه فى الواقع صور
فيها شخصية أخيه الاصغر « هرفيه » .

حملات النقاد الظالمة على القصة !

♦ ولقد تعرضت « حياة امرأة » لحمات كثيرة من النقاد : فلقد عاب بعضهم
خلوها من « عقدة » قصصية .. والواقع ان هذا لم يقلل من شأنها ، بل لعله
كان شهادة ببراعة « موباسان » فى خلق الحوادث أثناء تحليله لنفسية وحياة
المرأة .. مما جعلها حية ، حافلة بالحركة والسحر والتشويق الى النهاية ..
وقال آخرون ان القصة تضم كثيرا من الصفحات التى يجوز للام ان تطلع
عليها ابنتها ، ولكنها - فى مجموعها - لا تليق بأن تكون فى متناول جميع
افراد الاسرة .. وفى هذا تحامل غير منصف ، فالواقع ان المواقف الصريحة التى
أوردها « موباسان » فى القصة ، لم تقصد بها الاثارة الجنسية - كما قد يخيل
لمن يقرأ الرواية قراءة عابرة دون درس أو تأن - وإنما أورد موباسان تلك المواقف
لتكون دروسا حية فى علاج مشكلتين من أهم المشكلات التى تهدم البيوت :
مشكلة المسلك الذى يحسن بالزوجة ان تسلكه اذا ما اكتشفت خيانة زوجها ،
حتى لا تدفعه الى الامعان فى الخيانة .. ومشكلة الانانية الخاطئة التى تخالط
حب الام لابنتها ، وتؤدى فى كثير من الاحيان ، الى افساد الابن !

كذلك عاب بعض النقاد على « حياة امرأة » انها توحي بأن حظ المرأة الاثمة ،
الخاطئة - « روزالى » فى القصة - أسعد حظا من الزوجة الشريفة ، العفيفة ..
وفى هذا كثير من التجنى ، فالواقع ان « موباسان » انما اراد أن يبين كيف أن

الزوجة قد تكون هي اليد التي تدفع الزوج الى الخيانة ! وقد رسم ذلك في موقف صدود «جان» واعراضها عن زوجها كلما أراد أن يتقاضاها حقوق الزوجة .. وهو صدود نابع عن حياء العذراء الطاهرة البريئة فعلا ، ولكنه ليس وليد السذاجة بقدر ما هو وليد اعمال الآباء والامهات اطلاع بناتهم - وابنائهم ايضا - على ناحية من نواحي الحياة الزوجية ، ليس فيها ما يخذش الحياء أو كرامة الانوثة أو الاخلاق ، لان الزواج يخلق عليها مشروعية بل وقداسة ايضا ! كذلك حاول « موباسان » - ووفق في محاولته - ان يبين كيف ان نفور « جان » من زوجها بعد اكتشافها خيانتة ، وكيف أن تشهيرها به اذ اطلعت ابويها والقس على ما حدث ، لم يصلحه ، بل دفعه الى التماذى والايفال فى الحيانة !

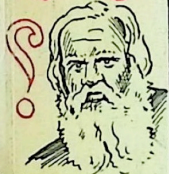
وناحية ثالثة .. تلك هي غيرة الاب الغريزية من ابنه حين تغالى الام فى ايثار صغيرها بحبها وعنايتها .. الغيرة التى تصرف الزوج عن الزوجة ، وتنفر الاب من ابنه ..! ولو عرفت الزوجة كيف تلتزم الحكمة فى توزيع عواطفها وعنايتها بين زوجها وابنها ، لاحتفظت بحب الاثنين !

ومما عابه ايضا بعض النقاد ، على « موباسان » انه بتصويره شخصيتي « بول » و « دنيس » - ابن روزالى - قد انتصر لابن الحرام على ابن الحلال ، اذ أظهره اقوم خلقا واصلح نشأة ، واكثر جدا ، وأبر بامه ، من ابن الحلال « بول » ! .. وفى هذا ايضا كثير من التجنى ، فالواقع - الذى قصد اليه « موباسان » واحسن تصويره - هو ان الام قد تكون سببا فى اسعاد ابنها وتوجيهه الى مستقبل صالح ، كما ان بيدها ان تشقيه وتفسد عليه حياته ! .. فان اسراف « جان » فى تدليل ابنها كان هو سر شمساده ، وانحرافه .. اما « روزالى » فكانت تدرك ان ليس وراءها حسبا ، ولا نسبا ، ولا ثراء يشد أزر ابنها فى الحياة ، وان المزرعة الصغيرة التى منحه اياها « البارون » هى عتاده الوحيد ، فكان ان نشأته على الاستقامة والجِد فى العمل ، لاستغلال المزرعة وتوسيع مساحتها ..

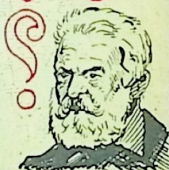
فهل تعاب على المؤلف هذه الدروس الاجتماعية الجليلة ؟

الواقع ان حملات النقد هذه لم تؤد الا الى ترويج الرواية ، فما ان نشرت آخر حلقاتها فى «جيل بلان» ، حتى ظهرت فى أسواق الادب فى كتاب مستقل ، وترجمت قورا الى الانجليزية ، كما ترجمها « تولستوى » بعد ذلك الى الروسية ، من فرط اعجابه بها .. ولم تمض سنوات حتى رشحتها جماعة من كبار كتاب فرنسا - بينهم اندريه جيد ، وجان جيرودو ، وادمون جالو ، وفرانسوا موريلاك ، واندريه مورو - كاحدى « اعظم عشر روايات فى فرنسا » !

تولستوى



موجو



مطبوعات كتابى

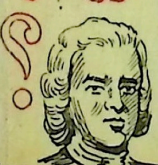
تقدّم لك فى أعدادها القادمة

مجموعة منقاة من توافر الكتب العالمية، لأشهر
المؤلفين، مترجمة عن شتى اللغات، بأقلّ من أقدر
المترجمين ..

انها السلسلة العربية الوحيدة التى تضع
بين يديك الترجمة "الأمينّة" الكاملة لأعظم ما
أنتجته الفكر الإنسانى فى جميع العصور .. فى طبعا
ثمينة الجواهر، فائزة المظهر، زهيدة الثمن !

تابع الاعلانات عن أعدادها القادمة
ومواعيد صدورها، على صفحات «كتابى»

روسو



مطبوعات
كتابى
يصدرها: هاشمى مراد

ديكتر

